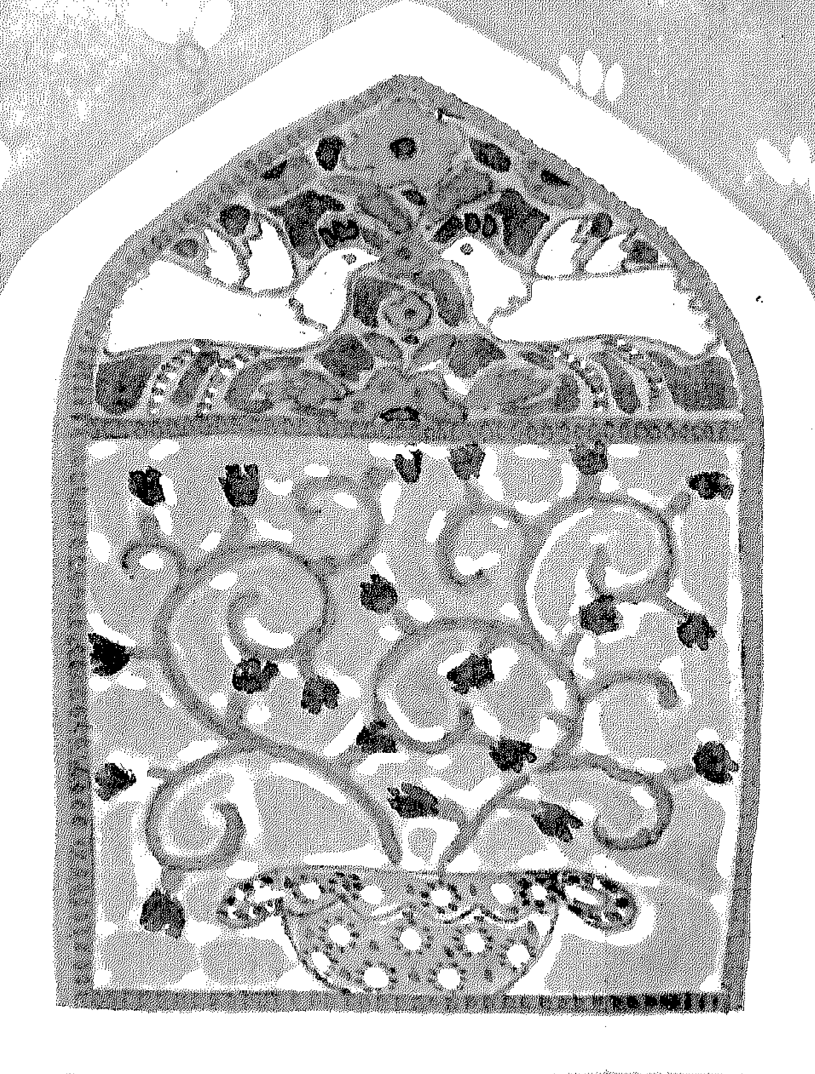
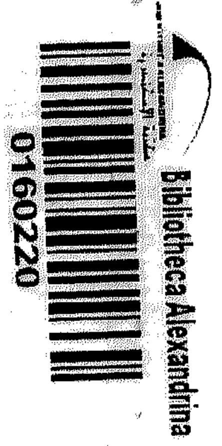
فاروق شوشة



لى عشرين قصيدة
الحب الإلهى

دار الشروق




أحلى عشرين قصيدة
في الحب الإلهي

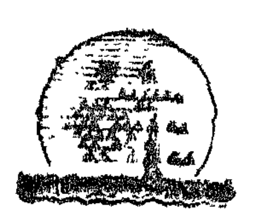
طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

فاروق شوشة

أحلى عشرين قصيدة
في الحب الإلهي



دار الشروق

« لقد صار قلبى قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيتُ لأوثانٍ ، وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ ، ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدين الحبِّ أنَّى توجّهت
ركائبه ، فالحبّ دينى وإيمانى »

ابن عربى

هــذا الكـــتاب

هذه هي الحلقة الثانية فى سلسلــة المختارات التى تهدف إلى تقديم عيون الشعر العربى ـ قديمه وحديثـه ـ من خلال التفافها حول إطار معين ينتظم هـذه المختارات ، أو تجربـة شعريـة كبرى ، مع التـوقف بالتحليل والتأمل عند أبرز من تناولوها فى رحلة القصيدة العربية عبر العصور .

وإذا كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلـة توقفت عند تجربة الحب فى الشعر العربى ، وحملت عنـوان « أحلى عشرين قصيدة حب » فى هذا الشعر ، فإن هذه الحلقـة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمــى من ساحات هذا الحب هى ســاحة الحب الإلهى ، حيث فاضت وجـدانات العشاق الكبار مـن الشعراء بأنغام وتـرانيم وألحان تطهروا بها ، وحلقـوا من خلالها ، دُنـوًّا واستشرافًا مـن الأفق الأعلى والأسمــى ، حيث ينـابيع الـروحانيـة ، والفيض الغـامر ، وحيـث تمتلئ النفوس بـأقباس مـن النورانيـة وتفيض العيون بـدموع النـدم والخشية والتوبـة ، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقـامات العشق وأحواله ، وينسكب هـذا كله فى النهـاية شعـرًا يفيض بـالصدق ويعمـر باليقين والمحبـة والإيمـان .

لكن الأمر فى هذه المختارات المتصلة بالحب الإلهى لم يكن بالهين أو اليسير.

فعلى الرغم من امتلاء صفحات كثيرة من تراثنا العربى بنماذج هذا الحب، إلا أن اختلاطها واضطرابها وتداخلها، وتفاوت مستوياتها بين أصالة وتقليد، وشاعرية وصنعة، وصدق وتكلف، يجعل مهمة الاختيار والتصنيف شاقة وعسيرة، فضلاً عن عدم ملاءمة الكثير منها، وهى أمور اقتضت بذل المزيد من الجهد، واستغراق الكثير من الوقت.

ولسنا نزعم أن هذه القصائد العشرين هى أفضل ما فى تراث الحب الإلهى ـ قديمه وحديثه ـ من نماذج، ولا أن أصحابها من الشعراء هم وحدهم أفضل الشعراء وأحقهم بأن نتوقف عندهم، فكما قلت فى تقديمى « لأحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى »: إن الأساس الأول فى الاختيار هو ذوق شخصى، وقد يخطئ هذا الذوق وقد يصيب، لكن ارتباطى الوجدانى ببعض هذه القصائد من خلال مواقف وتجارب معينة، وعلى مدار العمر، جعلها أقرب إلى نفسى وأسبق إلى الاختيار من سواها.

كذلك فإن حرصى على تغطية مساحة طويلة من الزمان تنتظم شعر الحب الإلهى ـ من بدئه كظاهرة فنية ملموسة حتى يومنا هذا جعلنى ـ كما قلت من قبل ـ لا أطيل التوقف عند ممثلى كل عصر من بين أعلامه وأصواته الكبرى بقدر إسراعى إلى انتزاع القصيدة النموذج فى دلالتها وموضعها من السياق.

ولاشك أن وضع هذه المختارات فى سلك منظوم يحمل انتظامه معنى ، ويعطى تتابعه واطراده دلالة ، ويؤدى بسياق اكتماله إلى فكرة واضحة هى الكشف عن تجربة التعبير عن الحب الإلهى فى شعرنا العربى ، وحقيقة موقف الشعراء العشاق من هذه التجربة والمدارات التى حلقوا فيها وسموا إليها ، وألوان الصور الشعرية التى أبدعوها والأنغام الموسيقية التى عزفوها والأبنية الفنية التى أقاموها ـ لاشك أن هذا الهدف يستحق عناء البحث والتنقيب والتحقيق والاختيار .

ولقد ظلت هذه النماذج وغيرها من تراث الحب الإلهى مختلطة مع غيرها من قصائد المدائح النبوية والابتهالات والأدعية والمنظومات والأذكار الدينية ، ولعل هذه هى المحاولة الأولى لاستخلاصها ، وتجريد بعضها مما لحق به من تحريفات أو علق به من تجاوزات ، حتى تكون هناك مختارات قادمة ، تركز على شعر المدائح النبوية باعتبارها فنًا مستقلاً ، له خصائصه وسماته وله أعلامه من الشعراء قدامى ومعاصرين ، وله مساحته الواسعة من الدوران فى ديوان الشعر العربى منذ أقدم العصور حتى اليوم .

والأمل معقود أن تلقى هذه المختارات من شعر الحب الإلهى ما لقيته سابقتها لدى القراء من ذيوع وانتشار ، بعد أن أدى الإقبال عليها إلى صدور الطبعة السادسة منها فى سنوات معدودة ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسونا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته ، فتعدد مجالات الاختيار ، من خلال أذواق عدة ، من شأنه

أن يـؤدى فى النهايـة إلى تكـوّن الـذوق الصـحيح المدرب الـذى يجيـد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح فى تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفـض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجدّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات فى تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعرى ـ قديمه وحديثـه ـ وفتحت بابًا ولويسيرًا لتذوق عصرى ، ترفـده حساسيـة جديدة ، ووعـى جديـد ، فإنها تكـون قد شارفت الغاية ، وأشارت إلى الطريق .

الرحلة فى بحار العشق

هى رحلة حب من طراز نا در وفريد .

نتقدم من خلالها إلى ساحة عامرة وضيئة ، تغتنى بالعديد من الأنغام والألحان التى أبدعها هؤلاء الشعراء الذين تغنوا بالحب الإلهى ــ عشقًا وهيامًا وفناءً وذوبانًا ـ بعد أن سموا بإدراكهم وتذوقهم للجمال والحب إلى ما فوق رغبات الحس ودواعى المتعة ونفذوا إلى أبعد آماد معانيه وصوره وتهويماته ، واستطاع هؤلاء الشعراء ـ الذين امتلأت قلوبهم ووجداناتهم بأقباس الحب الإلهى ـ أن يبدعوا عالمًا شعريًا له مفرداته ورموزه وإيحاءاته ، وله معجمه الخاص الذى لابد من الإحاطة به لمن يحاول الاقتراب من حدود عالمهم الشعرى ، خشية أن يزل أو يضل ، فالجمال بالنسبة إليهم وسيلة لسمو الروح واهتدائها إلى المعانى الخيرة المطلقة والمبادئ السامية . كما أن آيات الابداع التى تتجلى فى المخلوقات هى سبيل لتحقيق النشوة الروحية التى يعرج بها كل امرئ نقى السريرة إلى الله .

فالجمال الإلهى يتجلى فى الطبيعة من خلال الموجودات والكواكب

والنجـوم ، كما يتجلى فى النـاس . والكـون كلـه يشترك فى عبـادة ذى الجمال المطلق المنزه عن التشبيه ، ويهيم بهذا الجمال فى نشوة مقدسة، وهذا الحب الإلهى يغمـر الكون ، ولـولاه ما انتظـم الكون . ومـن هنا يمكن أن نفهم تجليات هذا الحب وأسراره وإيماءاتـه وومضاته ونحن نتـابع رحلـة هـؤلاء الشعـراء فى هيامهـم بـالجمال الإلهى تتردد على شفاههم أسماء محبوباتهم من البشر ، وهى فى حقيقتها رموز الجمال الأسمى ، فليلى وسعاد ونُعْم ـ وغيرها مـن الأسماء فى أشعارهم ـ هى الحبيب الأعظم ، وهى سبيلهم إلى الهداية الروحية ، يتجاوزون الجمال الجسمى المحدد إلى الانتشاء بالفيض الإلهى ، لجمالٍ يجل عن الوصف ويتقدس عن الكيف .

وقد عبر محيـى الدين بـن عربى ـ أحـد هؤلاء العشاق الكبـار من الصوفيـة ـ فى مقدمـة ديوانـه : ترجمان الأشواق ، عـن حقيقة إدراك هـؤلاء الشعـراء للجمال الإلهى ، منبهـًا إلى أن أشعارهـم لها ظـاهـر وباطـن، فظاهرهـا غزل يمكـن أن ينطبق على الغزل الحسّـى ، ولكن باطنهـا الهداية إلى أسرار الهيام بالمعـارف الإلهية والواردات البـاطنة والأسرار الجمالية العليا .(١)

يقول ابن عربى :

« لما نزلت بمكة سنة خمسمائة وثمانى وتسعين ، ألفيت جماعة من الفضـلاء ، ولم أر فيهـم مـع فضلهـم مثل أبـى شجـاع بـن رستـم

---

(١) ليلى والمجنون أو الحب الصوفى ترجمة وتقديم الدكتور محمد غنيمى هلال .

الأصفهاني ، وكان لهذا الشيخ بنت تقيد النظر وتزين المحاضر، علمها عملها ، عليها مسحة مَلَك وهمة مِلك ، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد ، فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى ، ولم أزل فيما نظمته فى هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحية والمناسبات العلوية ، جريًا على طريقتنا المثلى ، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية » .

فإذا حاولنا أن نتأمل حقيقة هذا الحب الإلهى ومعناه ، ذلك الذى هام فيه الصوفية ، وفنوا وتفانوا ، معبرين عن خوالجهم وعن شطحاتهم ، فى نثرهم وشعرهم ، وأدعيتهم وابتهالاتهم ، وشروحهم وتعليقاتهم ومنظوماتهم ، وجدناه وقد تمثل فى صورته الأولى من خلال التعبير القرآنى المحكم ومأثور كلم الرسول الكريم .

جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم « يحبهم ويحبونه » فى قوله تعالى : ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ . [سورة المائدة : الآية ٥٤]

وفى قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ٣١]

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ .

[سورة البقرة : الآية ١٦٥]

ويروى عن الـرسـول الكريم : اللهـم إنى أسـألك حبـك ، وحب من يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلىّ من نفسى وأهلى ومن الماء البارد .

ومن مأثور قول الرسول الكريم :

« من أحب الله فليحبنـى ، ومن أحبنى فليحب أصـحابـى ومن أحب أصـحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية أذن الله تعالى بـرفعها وتطهيرهـا وبارك فيها ، فهـى ميمونـة ميمون أهلها، فهم فى صلاتهم والله تعالى فى حوائجهم ، وهم فى مساجدهم والله تعالى فى نجح مقاصدهم » .

وفى القرن الثانى الهجرى تتأكـد فكرة حب الله من خلال شخصية التفت حـولها القلوب والعقـول ، هى شخصيـة رابعة العـدوية التـى ظهرت فى البصرة داعيـة بدعـوة جديدة هـى دعوة التقـرب إلى الله عن طريـق حبه ، وهـى تنادى بهذا الحب لأنها تـرى أن الله أهل لأن يحب أولاً لأنه مصـدر النعم التـى لا تنقطع ، فـلا سبيل لأن ينقضـى حب المنعم بها على العباد ، وهو أهل لأن يحب ثانيًا لجماله وجلاله .

تقول رابعة :

أحـبك حبيـن : حـب الهـوى
وحـبًا لأنـك أهـلٌ لـذاكـا
فـأمـا الـذى هـو حبّ الهوى
فشغـلى بذكـرك عـمن سواكا

وأمـا الـذى أنـت أهـل لـه

فكشـفك لى الحجب حتى أراكا

فـلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى

ولكـن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

وفى موضع آخر من شعرها تقول :

ياسرورى ومنيـتى وعـمادى

وأنيـسى وعـُدَّتى ومـرادى

أنت روح الفؤاد ، أنت رجـائى

أنت لى مؤنسى وشـوقك زادى

أنـت لولاك يا حـياتى وأنسى

مـا تشتتُّ فى فسـيح البـلادِ

كـم بـدت مـنة وكم لك عندى

من عطـاءٍ ونعمـة وأيـادى

حبـك الآن بُغْيـتى ونعيمى

وجـلاء لعيـن قلـبى الصادى

ليـس لى عـنك ما حييت بَراحٌ

أنـت مـنى ممكّـن فى الفـؤادِ

ويبدو أن نفـاذ شخصية رابعـة فى القلوب ، ودوران شعـرها على

الألسنة والأسماع ، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعةً واستلهاما ، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما علمت بأن قلبى فارغ
ممن سواك ، ملأته بهواكا
وملأت كلى منك ، حتى لم أدع
منى مكانا خاليًا لسواكا
فالقلب فيه هيامه وغرامه
والنطق لا ينفكُّ عن ذكراكا
والطرف حيث أُجيله متلفتا
فى كلّ شىء يجتلى معناكا
والسمع لا يصغى إلى متكلم
إلا إذا ما حَدّثوا بحلاكا

بل إنه ينظر من قريب أيضًا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة :

لك قرب منى ، ببعدك عنى
وحنوٌّ وجدته فى جفاكا
علّم الشوق مقلتى سهر الليل
فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلة بها صدتُ إسراك
وكان السهاد لى أشراكا
بات بدر التمام طيف محيّاك
لطرفى بيقظتى إذ حكاكا

فتراءيت فى سواك لعينٍ
بك قَرَّتْ وما رأيت سواكا

وهى أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق فى الإتيان بالصور المبتكرة والمعانى الطريفة ، وهو مجال كان لابن الفارض فضل السبق فيه ، من خلال قدرته الفذة على اصطياد عشرات الصور التى يتمثل فيها جمال صورة المحبوب ، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها ، أليس هو القائل :

تراه إن غاب عنى كل جارحة
فى كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بهيج
فى نغمة العود والناى الرخيم ، إذا
تألَّفا بين ألحانٍ من الهزج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى
برد الأصائل والإصباحِ فى البَلَجِ
وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نَوْرٍ من الأزهار مُنتسج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلىَّ سُحَيرًا أطيب الأرج
وفى التثامىَ ثغر الكأس مرتشفًا
ريق المدامة فى مستنزهٍ فرج
لم أَدْرِما غربةُ الأوطانِ وهو معى
وخاطرى أين كنّا غير منزعجِ

ويبدو أن هذا اللون من الحب لم يكن من السهل ولوج عالمه والارتقاع إلى مستوى معاينته وتمثله ، إلا بعد ابتلاء طويل وتجارب قاسية يتعرض فيها المتصوف فى البداية إلى معاناة الحب الإنسانى حتى تحتدم به عاطفته ، فيكون التحول إلى حبٍ أسمى هو حب الله .

قال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشىء من المحبة .

فقال : يا بنى : هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟

فقال : لا ، فقال : فلا تطمع فى المحبة فإنه لا يعطيها عبدًا حتى يبلوه. وشبيه بهذا ما قيل لبعض الصوفية وكان قد بذل المجهود من ماله ونفسه حتى لم يبق منها بقية : ما كان حالك من هذه المحبة ؟ فقال : كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت بى هذا البلاء . قيل : وما هى؟ قال : سمعت محبوبًا قد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك، أملكك ما أملك ، ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك ، فقلت : هذا خلق لخلق وعبد لعبد ، فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود ، فكان لذلك سببه[1] ثم يجىء ذو النون المصرى ــ فى القرن الثالث الهجرى ـ ليضيف إلى هذا البعد من أبعاد الحب الإلهى عند المتصوفة ملمح الأنس ، الأنس بالله، أى العمل له خالصًا ، مع فرح القلب بالمحبوب « أى الله » ولو كان ذلك عن طريق النظر إلى بعض خلقه اتعاظًا واعتبارًا دون السكن إليهم.

يقول ذو النون حين سئل عن الأنس : أن تأنس بكل وجه صبيح

---

(١) « أبو طالب المكى » : قوت القلوب جـ ٢ .

وكل صوت فصيح ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك .

ثم نطالع عند إخوان الصفاء ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ إدراكًا أعمق وأشمل لفكرة الحب الإلهى باعتباره الحب الحق والعشق الخالد الذى تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تسمو إليه من الكمال فالله هو المعشوق الأول المنزه عن الشبيه [١] ولا يستلزم حب الله والهيام به تجسيمًا فى رأيهم ، لأن الله يجل عن الشبيه والصورة ، لكن رؤية أولياء الله تعالى له هى رؤية نور بنور لنور فى نور ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ﴾ .

[سورة النور : الآية ٣٥]

وهكذا يمضى إخوان الصفاء فى هذا الطريق ، طريق اتخاذ الحب طريقًا إلى الله ، والهيام به لجماله وجلاله ، وإدراك أن هذا الجمال كان الباعث على خلق الكون [٢] ، والفلك إنما يدور شوقًا إليه ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات وأكمل الغايات وأفضل النهايات .

وهكذا تكتمل صورة هذا الحب الإلهى ، من خلال أبرز أعلامه ، واتجاهاتهم وأفكارهم ، فهو ليس تعلقًا بالأجساد وصور المادة ، بل

---

(١) رسائل إخوان الصفاء جـ ٢ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ابن قيم الجوزية .

هو حب للمعانى العقلية والكاملة وتعلق بالمثل وهيام بمصدر الكمال والجمال ، ومن هنا فالحب عند الصوفية طريق إلى الزهد فى متع الدنيا جميعًا وحرب على النفس وسبيل إلى العزوف عن مغرياتها .

والصوفية يحفلون بجمال الروح قبل جمال الجسم ، ولا فرق عندهم بين حب من صفت روحه من حسان الخلق وحب شيخ الطريقة الكهل الأشيب لأنه جميل الروح (١) . وشرط الوصول إلى الحق عن طريق الحب أن يكون المحب جميل الروح ،وأن يهتم بمخلوق جميل الروح ولو لم يكن جميل الجسم ، إن جمال الروح هو الذى يفتح أمام المحب الطريق للتأمل والفكر اللذين هما السبيل للوصول إلى الغاية من الحب عند الصوفية . فجمال الخلق يمكن أن يتخذ سبيلاً لمعرفة الحق، والحب هو الطريق لمعرفة الحقيقة . يقول عبد الرحمن الجامى الشاعر الفارسى المتصوف ـ فى قصة يوسف وزليخا (ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال) :

« القلب الخالى من ألم العشق ليس بقلب ، والجسم الخالى من ألم العشق ليس إلا ماءً وطينًا ، فأشح بوجهك عن العالم ولا تفكر إلا فى العشق ، فدوران الفلك إنما هو من أجل العشق فكن أسير العشق لتصير حرًا ، وقاسِ من أحزانه فى صدرك لتحظى بالسرور ، ولا تشح بوجهك عن العشق ولو كان العشق المجازى لأنه الطريق إلى العشق الحقيقى ، وكيف تتيسر لك قراءة القرآن إذا لم تكن قد طالعت أولاً

---

(١) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية للدكتور محمد غنيمى هلال .

الحروف الأبجدية فى اللوح ؟ سمعت أن مر يـدًا طلب من شيخه العون فى إرشاده فقال له الشيخ : إذا لم تكن قد نقلت الخطو فى طريق العشق فاذهب وأحبّ ثم عد إلينا ، إذا بـدون كأس خمرة الصورة لن يستطيع امرؤ تذوق جـرع المعنى ، ولكن لا تمكـث طويلاً أمـام الصورة واعبر سريعـًا ذلـك الجسر إذا أردت أن تسرع بـوضـع رحلـك فى منـزل الوصول».

ويروى الجامى فى قصته « يوسف وزليخا » حكاية الفتاة المصرية الجميلة المسماة « بازعـة » وقد أحبت « يـوسف » من قبـل أن تراه لما سمعته من وصفه ، فلما رأته وقعت مغشيـًا عليها لما بهرها من جماله ثم أفاقت فأخذت تسأله : « يـا من بك يستقيم أمر كل ذى حسن ، من ذا الذى زينك بمفاتن الجمال ؟ من ذا الذى جعل شمس جبينك تتألق؟ وأى مصورٍ أبـدع قلمه فى نفسك ؟ وأى بستـانى تعهـد شجرة سروك وأى فرجار رسـم قوس حواجبك ؟ ومن ذا الذى جعـد هكذا ذوائبك ؟ ومن أين لوردتك النضرة ذلك الماء الذى به رويت ؟ » .

فأجابها يـوسف : « أنا صنعة صـانعى ، وقطرة من بحـره كافية لخلقى ، وما الفلك إلا نقطة من كماله ، وما العالم إلا برعمة من حديقة جماله ، وقد أشرقت الشمس بنور حكمته ، وما السموات إلا حباب من بحر قدرته ، وجماله منزه عـن تهمة العيب ، مستتر فى حجاب الغيب ، وقد جعل مـن ذرات العالم مرايا انعكـس وجهه فى كل منها ، فكـل ما يبدو جميلاً فى عيون المفكّر النافـذ البصيرة ليس إلا انعكاسًا لوجهه ، فحين ترين هذا الانعكاس عجّلى بـالاتجاه صوب الأصل الذى لا يبقى

بالاضافة إليه إشراق لذلك الانعكاس ، وإذا بقيت بعيدة عن أصل ذلك الجمال ـ وحاشا أن تبقىْ ـ فلا يلبث أن يفنى الجمال الذى تعلقت به فتظلين فى الظلمات ، فالجمال فى الخلق انعكاس عابر لا يطول بقاؤه كنضارة الورد فإذا أردت الخلود فتوجّهى إلى أصل الأشياء كلها » .

وعندما علمت الفتاة الحكيمة بهذه الأسرار من فم يوسف ، طوت بساط حبّها له ، وقالت له : « قد كدت أسقط إعياءً عندما رأيت وجهك ، وكنت أود أسلم الروح فوق قدميك ، ولكن حين ثقبت جوهر الأسرار وتحدثت عن سمات منبع الأنوار ، جعلتنى بلطف قولك الحق أدير وجهى عن حبّك ، قد رفعت الحجاب عن وجه المثال الذى إليه تطلعت ، والآن وقد تفتح قلبى لهذا السر ، وتطلعت أنظارى إلى العشق الحقيقى عن طريق عشقك المجازى ، فخير لى أن أنصرف عن المجاز إلى الحقيقة». ثم شكرت يوسف وانصرفت ، وأسست لها مقامًا للعبادة على ساحل النيل حيث ترهبت وزهدت فى خير الدنيا .

ويعرف بعض هؤلاء العشاق من المتصوفة المحبة بأنها الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة الحبيب فى المشهد والمغيب ومحو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته ، ومواطأة القلب لمرادات الرب ، وترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

يقول أبو يزيد البسطامى : المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك .

ويقول سهل بن عبد الله التسترىّ :

إن العباد عبدوا الله على ثلاثة وجوه : على الخوف والرجاء والقرب

ولكلٍ علامة يعرف بها وشهادة تشهد له بما له وعليه . فعلامة الخائف الاشتغال بالتخلص مما يخاف فلا يزال خائفًا حتى يتخلص ، فإذا تخلّص مما يخاف ، اطمأن وسكن ، فهذه علامة الخائفين . وأما الراجى فإنه رجا الجنة وطلب نعيمها وملكها فأعطى القليل وطلب الكثير، فبذل نفسه وخاف أن يسبقه أحد فجد فى البذل وتحرز من الدنيا ألا يقف غدا فى الحساب فيسبق .

وأما العارف الذى طلب معرفة الله وقربه ، فإنه بذل ماله فأخرجه ، ثم روحه فأباحه ، فلو لم تكن جنة ولا نار لما زال ولا فتر ، فهذه علامة العارف .

فانظروا أيها العقلاء : من أى القوم أنتم ؟ أموتى لا حياة فيكم ، أم لا موتى ولا أحياء ؟ أم أحياء حيوا حياة الخلد ؟

ويحك : إن الخائف حيٌّ بحياة واحدة ، وللراجى حياتان ، وللعارف ثلاث حيوات ، وهى الحياة التى لا موت فيها .

فحياة الخائف إذا أمن النار فقد حيى بحياة ثم يتم بحياة ثانية ، ويدخل الجنة بغير حساب ، والراجى أمن من العذاب ومن الحساب فمر إلى الجنة مع السابقين بغير حساب ، فصار له أمانان ، وأما العارف فصار له أمانان من النار ، والأمان الثالث صار إلى الرحمن .

ويقول سهل أيضًا :

الحب معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عن المحبة فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب .

ويقول أبو عبد الله القرشـــي : حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء .

ويقول الشبلى : سُمّيت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

ويقول ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام .

ويقول أبو على الدقاق : المحبة لذة ومواضع الحقيقة دهش .

ويقول أيضًا : العشق مجاوزة الحدّ فى المحبة .

ويقول الشبلى : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .

ويقول ابـن عطاء : المحبة أغصــان تغرس فى القلب فتثمــر على قدر العقول .

ويقول سحنون : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يحشر المرء مع من أحب .

ويقول النصر اباذى : المحبة مجانبة السلو على كل حال .

وأنشد قائلاً :

ومن كـان فى طـول الهوى ذاق لـذةً
فـإنى من ليلـى لهـا غـيـر ذائـقِ
وأكـثر شىءٍ نلـته من وصـالها
أمـانىّ لم تصـدق كلمحـة بـارق

وأنشد ابن عطاء :

غرست لأهل الحب غصنًا من الهوى
ولم يـك يـدرى ما الهـوى أحدٌ قبلى

فأورق أغصانًا وأتبع صبوةً
وأعقب لى مرًّا من الثمر المحلى
وكلّ جميع العاشقين هواهم
إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

وفسر أبو على الدقاق قول الرسول الكريم : « حبك الشىء يعمى ويصم» قال : يعمى عن الغير غيرةً وعن المحبوب هيبة .

ثم أنشد :

إذا ما بدا لى تعاظمته
فأصدر فى حال من لم يرد

ويقول الحارث المحاسبى : المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرًا وجهرًا ، ثم علمك بتقصيرك فى محبته .

ويقول الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، والعارف إن لم يسكت هلك .

ويفسر بعض العارفين [1] هذا الكلام بقوله :

إن المحب الواله لابدّ له من الشكوى ، ويهيج من المحبة حتى ليكاد أن يحترق لو لم يبد ما عنده ، ولا يستطيع الصبر على غيبة محبوبه ، لذلك قال الله فى حق أم موسى ـــ عليه الصلاة والسلام ـ عند إلقائه فى اليم وغيبته عنها (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) ولو كان بين يديها لكتمته حرصًا عليه ، وكذلك العارف إذا وصل إلى

---

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى لأحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

المعرفة بمحبوبه كتم سره حرصًا على البقاء فى حضرته وأدبًا من هيبته وخشوعًا فى حضرتـه ، ولأنه بـات فى حضرة الغنـى المطلق مترقيـًا فى الأسرار العلية فـلا ينظر مـا سواه ، وقـد أغناه عـن طلب غيره والتـذّ بسريان السر فيه ، فهو فى مسارح الـروح تائه فى بيداء الجلال ، يتكلم المتكلمون حوله وقلبه قد لها عنهـم ، وروحه فى تجلياتها العظمى فوق مـدارك الفهـوم فـلا يفهمهم ولا يُفهمهـم مـا لا يطيقـون حملـه ولا يستطيعون فهمه ، ومـن وجد فى الحضرة فقد عراه الصمـت المطلق فى باطن أسراره ، ولـو تكلم فى الظاهر بمـوجب الشريعة وحال بشريتـه ، ولكنه يلهب القلوب لمجرد رؤيته من أنوار الحق التى تتجلى على باطنه ، ولذلك يذيق العارف محبيه حلاوة الإيمان بدون احتياج إلى بيان .

وقيل : المحبة نار فى القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب .

ويقول السوسى : لا تصلح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناءٍ على المحبة .

ويروون أن السرىّ رفع إلى الجنيـد رقعة وهو يقول لـه : هذه خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو فإذا فيها :

ولـمـا ادعـيت الحـب قـال : كذبتنى
فمـالى أرى الأعضـاء مـنك كـواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا
وتـذبل حـتى لا تجـيب المنـاديا

وتنحـلّ حـتى ليـس يبقى لك الهوى
سـوى مقـلة تبـكى بهـا وتنـاجـيا

ومما يروى أيضًا ــ فى هذاالسياق ـ أن يحيى بن معاذ كتب إلى أبى يزيد

البسطامي قائلاً : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته .

فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد، ويقول هل من مزيد ؟

وأنشد :

عجبت لمن يقول : ذكرت إلفي
وهل أنس فأذكر ما نسيتُ
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظني ما حييتُ
شربنا الحب كأسًا بعد كأس
فما نفد الشراب وما رويتُ
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً
فكم أحيا عليك وكم أموتُ

ويقول عبد الله بن المبارك :

من أعطى شيئا من المحبة ولم يُعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم السكر الذى يحصل عند الشهود لا يوصف .

وأنشدوا :

لى سكرتان وللندمان واحدة
شىء خُصصتُ به من دونهم وحدى

ويقول يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلىَّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وتذاكر قوم المحبة فى حضرة ذى النون المصرى فقال : كفّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخـــــوف أولى بـــالمســـــــىء
إذا تـــألَّــــــه والحـــــــــزَنْ
والحـــب يجـمــــــل بالتـــقىّ
وبـــالنقـــىّ مـــن الـــــــدرن

ويروون أن قومًا جلسوا يتذاكـرون المحبة فى الكعبة ، وكان الجنيد أصغرهم سنـًا فطلبوا إليه الكلام ، فـأطرق برأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبدٌ ذاهل عن نفسه ، متصل بذكـر ربه ، قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبـه ، أحرقت قلبـه أنوار هويتـه ، وصفا شربه مـن كأس وده ، وانكشف له الجبار عن أستار غيبـه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمـر الله وإن سكن فمع الله ، فهـو بالله ومـع الله ، فبكى القوم وقالوا : ما على هذا مزيد ، جَبَرك الله يا تاج العارفين .

والجنيد هوالقائل :

وتحققـــــتك فى ســـــــرى
فنـــاجـــاك لســـــانـــى
فاجتمعـــــــنا لمعـــــان
وافـــترقـــــنا لمعــــان
إن يـــكن غَـيَّبــك التعظـــيم
عـن لفــــظ عيـــــــانى
فلقـــــد صـــيرَّك الـوجــد مــن الأحشـــاء دانِ

وهو القائل أيضًا فى معنى المشاهدة :

حــــاضرٌ فى القلـــــب يعمــــره

لســـت أنســــاه فـــأذكـــره

فهـو مـــولاى ومعتـــــــمدى

ونصـــــيبى مـــنه أوفـــــره

وقيل : أوصى الله تعالى إلى داود عليه الســلام : ياداود إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى .

ويروى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام ، فقلت له : يا رسول الله اعذرنى ، فإن محبة الله تعالى شغلتنى عن محبتك ، فقال : يا مبارك ، من أحب الله فقد أحبنى .

ونطـالع فى هـذه السطـور لأبى الحســن الشـاذلى ــ أحد أقطـاب العارفين بالله والمتصلين بـأسرار الحب الإلهى - اقترابًا من حـدود هذا العالم الروحـى السمح والأفق النورانــى السامى ، وهو يتحـدث عن الأنس الـربانى وشوارق الأنـوار ولوائح الأسرار ويقف عنـد الأحوال والمقامات ، يقول أبو الحسن :

« أول منزل يطؤه المحب للترقى منه إلى العلا : النفس ، فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معـرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فـإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق منه عليه شىء ، أشرقت عليه أنـوار المنزل الثالث وهو الروح فإذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفـة هبت عليه أنوار اليقين شيئًا فشيئًا

إلى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة ، وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوكة ، تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها » . ويقول : « من أمده الله تعالى بنور العقل الأصلي شهد موجودًا لا حد له ولا نهاية ، بالإضافة إلى هذا العبد ، واضمحلت جميع الكائنات فيه ، فتارة يشهدها فيه كما بنية فى الهواء بواسطة نور الشمس ، وتارة لا يشهد انحراف نور الشمس من الكوة ، فالشمس التى يبصر بها هى العقل الضرورى بعد المادة بنور اليقين ، وإذا اضمحل هذا النور ذهبت الكائنات كلها وبقى هذا الوجود ، فتارة يفنى وتارة يبقى ، حتى إذا أريد به الكمال نودى فيه نداء خفيًّا لا صوت له ، فيمد بالفهم عنه ، ألا إن الذى يشهد غير الله تعالى ليس من الله فى شىء ، فهناك يتنبه من سكراته فيقول : يارب ثبتنى وإلا فأنا هالك ، فيعلم يقينًا أن هذا الحب لا ينجيه منه إلا الله عز وجل فحينئذ يقال له : إن هذا الموجود هو العقل الذى قال فيه رسول الله ـ صلى الله علية وسلم ـ : أول ما خلق الله العقل ، فأعطى هذا العبد الذل ، والانقياد لنور هذا الموجود ، إذ لا يقدر على حدّه وغايته ، فإذا أمد الله هذا العبد بنور أسمائه قطع ذلك كلمح البصر ، أو كما شاء الله تعالى : نرفع درجات من نشاء ، ثم أمده الله تعالى بنور الروح الربانى فعرف هذا الموجود فرقى إلى ميدان الروح الربانى ، فذهب بجميع ما تحلّى به هذا العبد ، وما تخلى عنه بالضرورة، وبقى كلا موجود ، ثم أحياه الله بنور صفاته فأدرجه بهذه الحياة فى معرفة هذا الموجود الربانى فلما استنشق من مبادئ صفاته كاد يقول : هو الله . فإذا لحقته العناية الأزلية نادته : ألا إنّ هذا الموجود

هو الذى لا يحق لأحد أن يصفه ، ولا يعبر عنه شىء من سر صفاته لغير أهله ، لكن بنور غيره يعرفه فإذا أمدّه الله بنور سر الروح وجد نفسه جالسًا على باب ميدان السرّ ، فرفع همته يعرف هذا الموجود الذى هو السرّ ، فعمى عن إدراكه فتلاشت جميع أوصافه كأنه ليس بشىء ، فإذا أمده الله تعالى بنور ذاته أحياه حياة باقية لا عاقبة ولا غاية لها ، فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة ، ووجد نور الحق شائعًا فى كل شىء لا يشهد غيره ، فنودى من قريب : لا تغتر بالله ، فإن المحجوب من حجب عن الله بالله ، إذ محال أن يحجبه غيره ، وهناك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه ، ثم قال : أعوذ بك منك حتى لا أرى غيرك ، وهذا هو سبيل الترقى إلى حضرة العلى الأعلى ، وهو طريق المحبين الذين هم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما يعطيه الله تعالى لأحدهم من بعد هذا المنزل لا يقدر أحد أن يصف منه ذرة ، والحمد لله على نعمائه .

وأما طريق المحبوبين الخاصة بهم ، فإنه ترقٍ منه إليه به ، إذ محال أن يتوصل إليه بغيره ، فأول قدم لهم بلا قدم ، إذ ألقى عليهم نور ذاته ، فغيبهم بين عباده وحبب إليهم الخلوات وصغرت لديهم الأعمال الصالحات ، وعظم عندهم رب الأرض والسموات ، فبينما هم كذلك إذ ألبسهم ثوب العدم ، فنظروا فإذا هم لاهم ، ثم أردف عليهم ظلمة غيبتهم عن نظرهم ، فصار نظرهم عدمًا لا علة له ، فانطمست جميع العلل ، وزال كل حادث ، فلا حادث ولا وجود ، بل ليس إلا العدم الذى لا علّة له ، فلا معرفة تتعلق به ، اضمحلت المعلومات ،

وزالت الرسومات زوالا لا علة فيــه ، وبقى من أشـير إليه ، لا وصف له ولا صفة ولا ذات ، واضمحلت النعوت والأسماء والصفات كذلك ، فلا اسم ولا صفة ولا ذات ، فهنالك ظهر مــا لم يزل ظهورًا لا علة فيه ، بل ظهر بسره لذاتــه فى ذاته ظهورًا لا أولية لــه ، بل نظر من ذاتــه لذاته فى ذاته ، وهناك يحيا العبد بظهور حياة لا علة لها ، وصار أولاً فى ظهوره لا ظاهــرًا قبله ، فـوجدت الأشياء بــأوصافــه وظهرت بنــوره فى نوره سبحانه وتعالى . ثم يغطس بعــد ذلك فى بحر بعد بحر إلى أن يصل إلى بحر السر فإذا دخل بحــر السر غرق غرقًا لا خروج له منــه أبد الآباد ، فإن شاء الله تعالى بعثه نائبًا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يحيى به عباده ، وإن شاء ستره يفعل فى ملكه ما يشاء » .

ويقــول أبو الحســن الشاذلى : « لا يــوصف العبــد بأنــه قد هجــر المعاصى إلا إن كانت لم تخطر لــه على بال ، فإن حقيقة الهجر نسيان المهجور ، هذا فى حق الكاملين ، فإن لم يكــن كذلك فليهجر على المكابدة والمجاهدة » .

ويقول أيضًــا : لن يصل العبد إلى الله تعــالى وبقى معه شهــوة من شهواته ، ولا مشيئة من مشيئاته ، ولن يقتــل هو نفســه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة إلى أن يذللها تذليلا ويروضـها على نسيان ذاتها، فيقف عند حد الذل إلى الله تعالى .

وفى ذلك يقول عمر بن الفارض :

وما ظفــرت بالــودّ روح مـُراحــةٌ
ولا بالــولا نفــسٌ ، صفــا العيــش ودَّتِ

وأيـن الصفـا ؟ هيهـات بالعيش عاشقٌ
وجـنة عـدنٍ بالمـكاره حُـفـّتِ
ولى نفـس حـرٌّ لـو بـذلت لها علـى
تسـلّيك ما فـوق المـنى ما تسـلّتِ
ولـو أبعـدت بالصدّ والهجـر والقلى
وقطـع الرَّجـا من خلـّتى ما تخـلتِ
وعـن مـذهـبى فى الحـب ما لى مذهبٌ
وإن ملـت يـومًا عـنه فـارقـت ملـّتى
ولـو خطـرت لى فى سـواك إرادة
على خـاطـرى سهـْوًا قضيت بردَّتى

ويقول بعـض العارفين مـن المحبين : « لولا الحب لم يخلـق الله فى الناس حياة ، فالحياة حب الله هى السعادة والوجود ، وفى غير حب الله هى الشقاء والفقد . وقال الله سبحانه وتعالى :﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذيـن آمنوا أشدّ حبا لله ، ولو يرى الـذين ظلموا إذ يرون العـذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شـديد العذاب ﴾ .

فالمخلوق يحن إلى خالقه بضرورة وجـوده ، لا يجد محبوبًا أسمى فى الله ، ولا يجد راحة إلا فى السكون إليـه وغنىً إلا به ، ولا جمالاً إلا فى التشـوق إليه ، والخالق يحن إلى من خلق ببرّه ورحمته ، وبحكم احتياج المخلوق إلى خـالقه إلا إذا كان من الكـافرين الأشقيـاء ، أو ذل بالحب المادى حتى هلك فيه .

وهو شبيه بقول من قال : سألت ربى بأىّ شىء أصل إليك يارب ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .

فإذا قتل حب النفس والأنانية والشهوات ، عاش لله بلا نفس ، وكانت الروح القدسية هى المتغلبة على النفس فمحتها وعاش بها محلقًا فى سماء القدس لا يهوى الدنيا وأهلها .

ويقول ذو النون المصرى : الأنس بالله نور ساطع ، والأنس بالناس سم قاطع . الشوق أعلى الدرجات والمقامات إذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقًا إلى ربه ، وحبًّا للقائه والنظر إليه .

ويقول : مدار الطريق على أربع : حب الجليل ، وبغض الفانى القليل، واتباع التنزيل .

ويقول :

لا لأنى أنساك أكثر ذكراك
ولكن بذاك يجرى لسانى

ويقول :

ذكرنا وما كنا لننْسى فنذكرُ
ولكن نسيم القرب يبدو فيظهرُ
وأحيا به عنىّ وأحيا به له
إذ الحق عنه مخبرٌ ومعبّرُ

ومن أشعاره فى الحب الإلهى :

أنت فى غفلة وقلبك ساهى
فغدا العُمرُ والذنوب كما هى

جمـّةٌ أحصـيت عليـك جميعـا

في كتـاب وأنـت عن ذاك لاهـي

لـم تبـادر بتـوبـةٍ مـنك حـتى

صـرت شيخـًا فحبـلك اليوم واهِ

فاجتهـد في فـكاك نفسـك واحـذر

يـوم تبـدو السّمـاتُ فـوق الجـباه

وتصـل الحال بـالعـارفين والعاشقين إلى أعلى درجـات الـذكـر ، والمشاهدة فيفيض البيان بما عجز عن كتمانه القلب واللسان .

يقول الشبلي الذي كان يقوم بالليل ويكتحل من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم :

ذكـرتـك ، لا أنـي نسيتـك لمحـة

وأيسـرُ مـا في الذكـر ذكـر لسـاني

وكـدت بـلا وجـد أمـوت من الهـوى

وهـام علـيَّ القلـب بالخفقـانِ

فلمـا أرانـي الوجـد أنـك حاضري

شهـدتـك مـوجـودًا بكـلٍّ مكـان

فخـاطبـتُ مـوجـودًا بغيـر تـكلم

ولاحظـت معلـومـًا بغيـر عـيان

ويقـول النابلسـي الـذي شغلـت أذكاره النـاس في مصر والشـام والعراق لما فيهـا من عـذوبة الإيقاع وجيشـان النغم وخفـّة الروح في أنشودة الساقي :

ساقى يا ساقى
اسقنى من خمره الباقى
واكشف لى عن قيد إطلاقى
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
أستاره راحت
عن عينى والزهرة فاحت
والسكرة بالأسرار باحت
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
اكشف لى عنّك
فى ذاتى وافتح لى دَنَّك
واجعلنى يا حِبِّى أنَّك
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى
افتح لى باب الحان
واسمعنى من طيب الألحان
وارشفنى من كأسى الملآن
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى
من يشرب يسكر
من خمرى لما يتفكّر
والمغرور فى علمه أنكر
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى

لا يعـــــرفُ أمـــــرى

إلا من يشـــرب خمـــرى

أحشــاؤه تصــلى فى جمــرى

آهٍ يـا ســـاقى ، آهٍ يـا ساقى

ويقول النابلسى فى تجليات وجه المحبوب ، وهى مقطوعة ذاعت فى حلقات الأذكار عن المتصوفة والعشاق :

تجلـــىّ وجـــه محـــبوبــى

وهــذا كُـــلّ مطلـــــوبــى

فيــانـــار العــــدا ذوبـــــى

بعــيدٌ عنـكِ مشـــــروبــى

جمـــال الأهيـــفِ الـزاهــــى

وحســـنُ الأغـــيد البـــاهــى

بــه صـــبرى هـــو الــواهــى

ومـوتــى فـــيه مـــرغــوبــى

رأيـــنا نـــوره أشـــــرق

فكـــنّا بـــرقـــه الأبـــرق

ولا نجـــــدٌ ولا أبْــــــرقْ

سوى الإبــريـــق والــكــوبِ

عليـــنا الخمـــر قـــد دارت

بهـــا ألبــــابُنا حـــــارت

وأطــيار الهـــوى طـــارت

بـــترتيـــــب وأســــــلوب

ملـــيح الـكــون وافـــانـــا

وزاد الحسْــــنُ احســـــانـــا

وحــــــيا يـــوســــف الآنـــا

فقـــــرَّت عــــــينُ يعقــــوب

ويروون أن أبـا حمزة الخراسانى كـان يقول : من استشعـر ذكر الموت حبّب الله إليه كل باقٍ وبغَّض إليه كل فانٍ .

وقال له رجل : أوصنى ، فقال له أبو حمزة : هئ زادك للسفر الذى بين يديك .

ومن أشعاره فى معنى الشهود والرضا بالحبيب :

أهــابـــك أن أبـدى إلـيك الذى أخفى

وسرّى يبدى ما يقـــول له طـــــرفى

نهـانى حـيائى منك أن أكـتم الهـــوى

وأغنيتـنى بالفــهم مــنك عـن الكشــفِ

ويروون أن سحنون المحب سئل ذات يوم عن التصوف فقال : هذا مذهب كله جِدّ فلا تخلطوه بشىء من الهزل .

ومن أقواله : من عـلامة الاغترار أن تسىء فيحسن الله إليك فتترك الإنابة والتوبة توهّمًا أنك تســامح فى الهفوات وترى أن ذلك من بسط الحقّ عليك.

ويقول : الفقير الصادق الذى يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقير .

ويقول سحنون واصفًا حال المحبين العارفين :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر
وتذكارهم وقت المناجاه للسرِّ
ولا عيْش إلا مع رجالٍ قلوبهم
تحنُّ إلى التقْوى وترتاحُ للذكرِ
أُديرت كئوس للمنايا عليهمو
فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السُّكر
همومهمو جوّالةٌ بمعسكرٍ
به أهل ودٌ الله كالأنجم الزهر
فأجسادهم فى الأرض قتلى بحبّه
وأرواحهم فى الحُجْبِ نحوالعلاتسرى
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم
وما عرجوا عن مس بؤسٍ ولا ضرِّ
سكوُنٌ إلى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع إلى الحِجْرِ

وسحنون هو القائل :

كان لى قلبٌ أعيشُ به
ضاع منى فى تقلُّبه
ربّ فارددْهُ علىَّ فقد
ضاق صدرى فى تطلِّبهِ

وأغثْ مادام بــى رمـــقٌ

يـا غــياث المستغيـــثِ بـهِ

ويقول الإمام القشيرى :

الغيبة غيبـة القلب عـن علم ما يجرى مـن أحوال الخلـق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عـن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب .

ويروون عـن على بن الحسين أنه كان فى سجـوده فوقع حـريق فى داره فلم ينصرف عـن صلاته ، فسئـل عن حـاله فقال : ألهتنـى النار الكبرى عن هذه النار .

ويقول بعض العارفين :

إن المحب يكـون فى المظهر كسائر النـاس ، لكنه فى الحقيقـة غائب عنهم فى طلـب مراده ، ويستوى عنـده الموت والحياة ، مادامـت روحه متعشقة لذات حبيبه مسلمة له فى جميع الأمور . فحياته فناؤه وفناؤه حياتـه ، ولو علـم الناس حقيقـة البقاء فى حضرة الحق وانكشـف لهم الحجاب لم يزاولوا أمـرًا من أمور الدنيا ، وترامـوا على أعتاب البقاء لما فيه من السعادة .

ومن هنا جاء شعرهم :

قـد شربنـا مـن حبـّه فسكــرنـا

وعـرفنـا مـن أيـن نـأتـى الجِوارا

ودخلنـا دار الكــرامـــة نــروى

بيقين الهوى وكنـــا حيـــارى

اعـــذرونـــا إذا نهيـــم ، فـــإنـــا
في ديـــار الهوى خُلقنــــا أُســـارى
وتـــرانا مـــن حيث نشرب في الكـــأس
سُكـــارى ولم نكــــن بسُكـــارى
نتحــــــلّى بالعلـــم في كـــل نـــــادٍ ،
ونُـــــرى بـــالتقـــى علينـــا إزارا
فقلـــوب مثـــل الكـــواكـــب فينـــا
تُظهـــر الـــنور فهـــو لا يتـــوارى

وامتلأت كتب تـــراثنا العربي بالكثير من أجـــوبة المحبين العارفين ، أهل التصـــوف والعشق الإلهي ، لما حفلت به مـــن جوامع الكلـــم ، ومن نماذج بليغة ، رفيعة التعبير ، مشرقة البيان، فضـلاً عن امتلائها بكل ما يُزيّن مكارم الأخلاق .

قيل لسهل بن عبد الله المروزيّ : مالك تكثر التصدق ؟ فقال :

لـــو أن رجـــلاً أراد أن يتنقل مـــن دار إلى دار، أكـــان يُبقـــى في الأولى شيئًا؟ .

وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب ؟

فقال : قد أردت ذلك فذكرت عـــادًا وثمودا وأصحاب الرسّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا ، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعًا .

وقيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ فقال : محلّة الأموات .

وقيل للحســـن البصريّ : كيف ترى الدنيـــا ؟ فقال : شغلني تـــوقع بلائها عن الفرح برخائها .

وقيل للفضيل بن عياض : إن ابنك يقول : وددت أنى فى مكانٍ أرى الناس ولا يرونني .

فقال : يا ويح ابنى ، أفلا أتمها فقال : لا أراهم ولا يرونني .

وقيل لبعض الصوفية : أى شيءٍ أعجب عندك ؟

فقال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقيل لآخر : مالك كلما تكلمت بكى من يسمعك ، ولا يبكى من كلام واعظ المدينة أحد ؟

فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

وقيل للربيع بن خيثم : ما نراك تغتاب أحدًا ، فقال : لست عن حالى راضيًا حتى أتفرغ لذمّ الناس .

وقيل لعبد الله بن المبارك : حتى متى تكتب كل ما تسمع ؟

فقال : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد .

وقيل لصوفى : ما صناعتكم ؟

فقال : حسن الظن بالله وسوء الظن بالناس .

وقيل للشبلى : لم سمى الصوفى ابن الوقت ؟

فقال : لأنه لا يأسف على الفائت ولا ينتظر الوارد .

وقيل لابن السماك : ما الكمال ؟

فقال : الكمال أن لا يعيب الرجل أحدًا بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وأن لا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفى طاعة أم فى معصية ، وأن لا يلتمس من الناس إلا ما يعلم أنه

يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم مـن الناس باستشعار مداراتهم ، وتوفيتـه حقوقهم ، وأن ينفـق الفضل من مـاله ويمسك الفضـل من قوله.

وقيل للشبلى : من الرفيق ؟

فقال : من أنت غاية شغله .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

دخلت على الشيخ ـ رضى الله عنه ـ وفى نفسى العزم على التجريد قائلاً فى نفسـى : « إن الوصول إلى الله تعـالى على هذه الحالة بعيـد مع الاشتغال بالعلـوم الظاهرة ووجود المخالطة للنـاس » فقال لى من غير أن أسأله :

صحبنى إنسـان مشتغل بالعلوم الظـاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذه الطريق شيئاً ، فجاء إلىّ فقال : يا سيدى أخرج عما أنا فيه وأتجرد لصحبتك ، فقلت لـه : ما الشـأن ذاك ، ولكن امكث فيما أنـت فيه ، وما قسم الله لك على أيدينـا فهو إليك واصل ، ثم قال الشيـخ ـ ونظر إلىّ ـ «وهكـذا شـأن الصـدّيقين لا يخرجون مـن شـىء حتى يكـون الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى » .

ويقول ابن عطاء الله :

إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء ، لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، ولو شهدوه فى كل شىء ، لم يستوحشوا من شىء .

ويقول :

علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه . لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ، ومحو ذنوبك لم تصل إليه أبدًا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ،ونعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه .

ويقول :

حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ ، وحظها فى الطاعات باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه .

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك .

ويقول ابن عطاء الله فى استغاثاته :

إلهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى .

إلهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى .

إلهى : وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى .

إلهى : إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ ، وإن ظهرت المساوىء فبعدلك ولك الحجة علىّ ، ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك ؟ أم كيف تخيب آمالى وهى وفدت إليك ؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك ؟

وينفتح أمام قلبه باب الرجاء فيقول :

إلهى : كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما آيستْنى أوصاف

أطمعتنى منّتك .

وينكر ابن عطـاء الله أن تكون الكائنات هى الشــاهد على وجود الله فيقول :

إلهى : كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟

متى غبت حتـى نحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتـى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

إلهى : أمرت بـالرجـوع إلى الآثار ، فـأرجعنى إليهـا بكسوة الأنـوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصـون السرّ عن النظـر إليها ، ومـرفـوع الهمة عـن الاعتماد عليها، إنك على كل شىء قدير .

ويتلهف على الوصول إلى الله فيقول :

إلهى : منك أطلب الـوصول إليك ، وبك أستـدل عليك فاهدنـى بنورك إليك ، وأقمنى بصدر العبودية بين يديْك .

إلهى : تقدس رضـاك عن أن تكون له علـة منك ، فكيف تكون لـه علّة منى ، أنت الغنى بذاتك عـن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنيًّا عنى .

ويقـول ابـن عطـاء الله : إلهى ، إن رجـائى لا ينقطـع عنـك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلك وإن أطعتك .

ويشير الدكتور زكى مبارك فى كتابه عن التصوف الإسلامى إلى أن لابن عطاء الله كلمات ســارت مسير الشمس ، فكانت شاهـدًا على قوته

الروحية ، من بينها قوله : إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيّبنى وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

ويقول إسحاق بن إبراهيم السّرخسّى : سمعت ذا النون وفى يده الغل ـ أى القيد ـ بعد أن سيق إلى الخليفة المتوكل من مصر إلى بغداد مقيدًا مغلولاً لأن بعض من لم يفهموه وشوا به واتهموه فى دينه ـ وهو يساق إلى الموت والناس يبكون حوله وهو يقول :

هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه ، وكلٌّ فعاله عذب حسنٌ طيب، ثم أنشد :

لك من قلبىَ المكان المصونُ
كلُّ لوم علىّ فيك يهونُ
لك عزمٌ بأن أكون قتيلاً
فيك ، والصبر عنك ما لا يكونُ

ومن أقوال ذى النون : الصوفية قوم آثروا الله على كل شىء فآثرهم على كل شىء . ومن وصاياه المأثورة عند الصوفية :

ليس بذى لبٍ من كاس (أى التزم بالكياسة) فى أمر دنياه وحمق فى أمر آخرته ، ولا من سفه فى مواطن حلمه ، وتكبّر فى مواطن تواضعه، ولا من فقد منه الهوى فى مواضع طعمه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من زهد فيما يرغب العاقل عن مثله ، ولا من زهد فيما يزهد الأكياس فى مثله ، ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ،

واستكثر قليل الشكر من نفسه لغيره ، ولا من نسى الله فى مواطن طاعته ، وذكر الله فى مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فعرف به ثم آثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره . ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه، ولم يجعل أدبه درعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرّفًا وتزيينا فى مجلسه .

ثم يقول :

أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه ينقطع ، لا تخرجوا من ثلاثة : النظر فى دينكم بإيمانكم ، والتزود لآخرتكم من دنياكم والاستعانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ويقول يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال ، لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحررها من الرياء وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟

ويروى السّراج الطوسى أن رجلًا وقف على الشبلى فقال له : أى صبرٍ أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله ، فقال الرجل : لا ، فقال الشبلى : الصبر مع الله ، فقال الرجل : لا ، فغضب الشبلى وقال : ويحك، فماذا ؟فقال الرجل : الصبر من الله عز وجل .

فصرخ الشبلى صرخة كادت تُتلف روحه .

ثم يقول السراج : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : هو

على ثلاثة أوجه : متصبر وصابر وصبّار ، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفى الله ولا يعجز ، وأما الصبّار فذلك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فهذا لو وقعت عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة لا من جهة الرسم والخليقة .

وبانتقال التجربة الصوفية فى التعبير عن الحب الإلهى ـ نثرًا وشعرًا ـ إلى محيى الدين بن عربى ، تزداد لغتها قوة وحرارة ورصانة، وتمتلئ بالتعابير والاصطلاحات والرموز التى يتطلب فهمها واستيعابها شروحًا وذيولاً وإفاضات تفتح بها مغاليق ذلك العالم الواسع الرحيب الذى يحلق فيه ابن عربى ويطوف ، فى مشاهد أنسه ومجالى تجلياته .

ويعده الدكتور زكى مبارك فى كتابه « التصوف الإسلامى » من طبقة الكتاب العظام ، ويرى أن نثره يمتاز بميزة عجيبة ، هى أنه لا يشغلك بالألفاظ ، وإنما يشغلك بالمعانى ، ففى كل صفحة من كتبه معركة عقلية ، فالقوة البيانية عنده قوة فكرة لا قوة تهويل .

يقول ابن عربى :

كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتى ، وهزنى حال كنت أعرفه، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطفت على الرمل ، فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى لو كان هناك أحد ، فقلت:

ليت شعرى هل دروا أىّ قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أىَّ شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفىّ بيد ألين من الخز ، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم لم أر أحسن وجهًا ولا أعذب منطقًا ، ولا أرقَّ حاشية ، ولا ألطف معنى ولا أدق إشارة ، ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفًا وأدبًا وجمالاً ومعرفة ، فقالت : يا سيدى كيف قلت ؟ فقلت :

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا

فقالت :

عجبًا منك وأنت عارف زمانك ، تقول مثل هذا ؟
أليس كل مملوك معروفًا ؟ وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمنى الشعور يؤذن بعدمها ، والطريق لسانٌ صادق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول هذا ؟ قل يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟

قلت :

وفؤادى لو درى أى شِعبٍ سلكوا

فقالت :

يا سيدى ، الشِّعب الذى بين الشغاف والفؤاد هو المانع له

من المعرفة ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول هذا ؟ يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟

فقلت :

حار أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت :

يا عجبا ، كيف يبقي للمشغوف فضلة يحار بها ، والهوى شأنه التعميم يخدر الحواس ، ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه فى الذاهبين ، فأين الحيرة وما هنا باق فيحار ، والطريق لسان صدق والتجوز من مثلك غير لائق ، فقلت :

يا بنت الخالة ، ما اسمك ؟ فقالت : قرة العين ، فقلت : لى ! ثم سلمتُ وانصرفت ثم إنى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف .

ومن الآثار الجميلة لابن عربى أبيات يقول فيها :

ذبت اشتياقًا ووجدًا فى محبتكم
فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن
ينشق صدرىَ لمّا خاننى جلدى
ما زال يرفعها طورًا ويخفضها
حتى وضعت يدى الأخرى تشد يدى

ومن منظـوماتــه التى يقعّـد فيها للتصـوف ، ويضمنها خـلاصة أفكاره ونظرته ـ فى الإشارة إلى الألفة بين العبد والرب ـ مقطوعة يقول فيها :

كلَّما قلــت : سيـــدى ... قــال لى : أنـت مــالكـى
ســـــدًّ والله كـــــون ... عبـدى علىَّ مســـالكـى
مــالنــا عنـه صــارف ... فى جميـــــــع المداركِ
لســـتُ فى عينـــه ولا ... فعلـــهِ بـــالمشـــاركِ
فهــو المالـــك الــذى ... ليـس يــدعـى بمالــكِ
وأنــــا الخادم الـــذى ... يعْتنــــى بــالممالــكِ
قلــت يــاربِّ عصمـــة ... مــن سبيــل المهــالــك
قال : سمعا فأنت عبدي ... مــــن أهـــل الأرائك
فى سرورٍ وغبطـــــــةٍ ... لا مـــن أهــل الــدرائك

ويوضح الـدكتور محمود قاســم فى كتابه عن (الخيـال فى مذهب محيى الدين بن عربى) كيف سبـق ابن عربى شعراء الرومانتيكية فى العصر الحديث إلى إدراك أن الخيال أعظم قوة خلقها الله ، وهو يرمى فى المقام الأول إلى الربـط بين الكشف الصوفى وهذه القـدرة التى يصفها بـأنها استمرار لعمليـة الخلـق الإلهى : « فليـس للقدرة الإلهيـة فيما أوجدته أعظم وجودًا من الخيـال ، فبه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهى ، فهو أعظم شعائر الله على الله ، ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء ، مع كونهم لا يعلمون مما قالــوه ، ولا يوفونه حقه ، وذلك أن

الخيال ـ وإن كان من الطبيعة ـ فله سلطان عظيم على الطبيعة بما أيده الله من القوة الإلهية » .

ومن هنا كان تفسير ابن عربى لما أنعم به الله عليه من فتوحات ضمنها كتابه « الفتوحات المكية » القائم على أن هذا الكتاب ليس إلا وليد تلك الصور الخيالية التى كان يتلقاها ـ كمحب ـ بعين الخيال فى حال اليقظة وأحيانًا فى أحلامه ، ويصف هذا كله بأنه نوع من الإلقاء الإلهى الذى ينزل على قلبه . ويلحّ ابن عربى ـ خشية المسارعة إلى اتهامه ـ فى تأكيد أن ما يتلقاه من فيوض وفتوحات ليس شبيهًا بالوحى الذى اختص الله به رسله إذا انقطعت النبوة والرسالة بموت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما هو جود إلهى ، أو هو ضرب من الحكمة ، تلك الحكمة التى لا يعلمها إلاَّ من أوتيها « فهى هبة من الله تعالى » كما وهبنا وجود أعياننا ولم نكن شيئًا وجوديًّا .. وهذا الكتاب من ذلك النمط .. فوالله ما كتبت منه حرفًا إلا من إملاءٍ إلهى ، وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روع كيانى .. هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا بأنبياء مكلفين ، فإن رسالة التشريع ونبوة التكليف قد انقطعت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا رسول بعده ، ولا نبى يشرع ولا تكليف ، وإنما هو علم وحكمة وفهم من الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله .. وما خط فى لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق ، فالتنزيل لا ينتهى بل هو دائم دنيا وآخرة :

الله أنشأ من طيٍّ وخولان
جسمى ، فعدلنى خلقا وسوانى

وأنشـــأ الحق لى روحـــا مطهـــرة
فليـس بنيـان غيرى مثـل بنيـانــى
إنــى لأعرف روحـا كــان ينزل بـى
مـن فــوق سبع سماوات بفـرقــان

يريد قوله تعالى : ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ﴾ .

[سورة الأنفال : الآية ٢٩]

ويؤكد الدكتور محمود قاسم [١] كما يؤكد سائر الباحثين أن ابن عربـى فى نثره وشعـره ـ لم يحب أحـدًا فى الحقيقة سـوى الله ، ولكنه احتجب عن الله تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدينار والدرهم، فكل هذه الضروب من الحب ليسـت إلا صـورًا أو رموزًا لحقيقة كبرى لا يمكن التعبير عـن جمالها وجلالها ، إلا إذا سلك العاشـق لها سبيل الغزل والتشبيب لكـى يصور فيها ما استطاع ، ما يختلـج بفؤاده من حب وهيام .

يقول ابن عربى :

كـل مــا أذكـره مـن طلـل ... أو ربـوع أو مغان كـل مـا
وكذا إن قلــت ها أوقلــت يـاً ... وألا ، إن جـاء فيه ، أو أمـا
وكذا إن قلت هـى أوقلت هو ... أوهمو،أوهنّ جمعًا ، أو هما
وكذا إن قلـت : قد أنجـد لى ... قـدر فى شعــرنـا أو أتهما
وكذا السحب إذا قلـت بكت ... وكذا الـزهر إذا مـا ابتسما

---

(١) الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى (فصل عن الحب الإنسانى والحب الإلهى) للدكتور محمود قاسم .

أو أنـــادى بحـداةٍ يممـــوا بانة الحاجز أو ورق الحمى
أو بـدور فى خـــدودٍ أفلـت أو شموسٍ أو نبـاتٍ أنجما
أو بروق أو رعـودٍ أو صبا أو ريـاح أو جنـوب أوسما
أو طـريقٍ أو عقيـقٍ أو نقـا أو جبـالٍ أوتـــلال أو رمـا
أو نســاءٍ كـــاعبـــات نُهدٍ طالعات كشموس أو دمـى
كـل مــا أذكره ممـا جـرى ذكــره ، أو مثلـــه أن تفهما
منــه أسرار وأنـــوار جلـت أو علت جـاء بها رب السما
لفـؤادى أو فـؤادٍ مــن لــه مثل مــالى من شروط العُلما
صفـة قـدسيـــةً علـويـة أعلمـت أن لصدقـى قدمـا
فاصرف الخاطرعن ظاهرها واطلب الباطـن حتى تعلما

ومن هنا يمكن تذوق وتفسير الكثير من الآثار الشعرية لابن عربى، فى الحب الذى وجـده ذوقا ، ففاق كـونه عشقـا مفرطا ، وهـوى مقلقا وغراما ونحولا ، وامتناع نوع ، دون أن يتحدد المحبوب .

يقول ابن عربى :

علقــت بمــن أهــواه عشريــن حجــة
ولم أدر ما أهوى ، ولم أعرف الصبرا
ولا نظـرت عينى إلى حســن وجههـا
ولا سمعـت أذنـاى قـــط لها ذكـرا
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى
فنعمنـى يـومـا ، وعـــذبنـى دهـرا

ويقول فى المعنى نفسه :

علقت بمن أهــواه من حيث لا أدرى

ولم أدر من هــذا الذى قــال لا أدرى

فقد حرت فى حالى وحارت خواطرى

وقــد حــارت الحيرات فىّ وفى أمــرى

فبينــا انــا مــن بعــد عشريــن حجــة

أتــرجــم عــن حــب يعــانقــه سرى

ولم أدر من أهوى ، ولا أعــرف اسمه

ولم أدر من هذا الــذى ضمَّه صدرى

إلى أن بـدا لى وجههــا مـن نقــابها

كمثــل سحاب الليــل أسفــرعن بــدر

فقلــت لهم : مــن هــذه ؟ قيــل هــذه

بُنَيَّةُ عين القلــب ، بنت أخــى الصدر

فكبرت إجــــلالا لها ، ولأجلهـــــا

فليلى بها أربـــى على ليلــــة القـــدرِ

ويروى ابن عربى فى كتابه ، « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار » حديثًا عن ابن باكويه عـن أبى الفضل القطان عن جعفر الخلدى قال : سمعت الجنيد يقول : حججت على الوحدة فجاورت مكة فكنت إذا جن الليل دخلت أطوف ، فإذا بجارية تطوف وهى تقول :

أبى الحب أن يخْفــى وكم قــد كتمته

فــأصبــح عنــدى قــد أنــاخ وطنّبــا

إذا اشتد شــوقى هــام قلبى بــذكره

وإن رمــت قربــامن حبيبــى تقربــا

ويبـدو فـأفنـى ، ثم أحيـا بـذكـره

ويسعـدنـــى حتـى ألَـذَّ وأطـــربـا

فقلـت لها : يا جـارية ، أمـا تتقين الله فى هذا المكـان ، تتكلمين بهذا الكلام ؟ فالتفتت إلىّ وقالت : يا جنيد :

لولا التقـى لم ترنـى	أهجر طيـب الوسـن
إنَّ التقـــى شردنـــى	كما ترى عـن وطنى
أفر مـن وجـدى بـه	فحبـــه هيّمنـــــى

ثم قـالت : يـا جنيد ، تطوف بـالبيت أم بـرب البيت ؟ قلـت أطوف بالبيت . فرفعت رأسـها إلى السماء وقالت : سبحانك ، ما أعظم شـأنك فى خلقك ، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار ، ثم أنشأت تقول:

يطـوفون بـالأحجار يبغـون قربـةً

إليك ، وهـم أقسى قلوبًا مـن الحَجرْ

وتاهوا ، ولم يدروا من التيه من همو

وحلـوا محل القرب فى بـاطن الفِكـرْ

فلو صـدقوا فى الود غابـت صفاتهم

وقامـت صفات الود للحق فى الـذِّكرْ

قال الجنيد : فغشى علىَّ من قولها ، فلما أفقت لم أرها .

والمتأمل فى آثـار هؤلاء المتصوفة والعشـاق الهائمين فى ساح الحب الإلهى يرى أنها تصدر عن مبدأين يحكمان الأمر كله ، أولهما أن العقل الإنسانى وحـده غير كاف فى الهداية إلى الله ، فليس فيه غنـاء فى هداية

الإنسان إلى الإيمان الحق . ومن هنا ، فهم جميعًا يلجأون إلى القلب واستشعار الحب الإلهى طلبًا لنور الهداية والإشراق العلوى . وهى السبيل المألوفة للنجاة عندهم . فالعقل - فى رأيهم - لا يستطيع حل كثير من المسائل .

يقول الغزالى وهو يتحدث عن الصوفية : « وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات[1] وكان قد حصل معى من العلوم التى درستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، واليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها » .

ويوضح الغزالى أن وصوله إلى طريق الأمن واليقين لم يكن بنظم دليل وترتيب وكلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر :

« وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، ومادام الأمر للذوق والكشف ، فطريق الصوفية إذن مفتاحها هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله » .

والمبدأ الثانى فى فكر هؤلاء المتصوفة من العشاق أن العاطفة

---

(١) المنقذ من الضلال - للغزالى تقديم الدكتور / عبد الحليم محمود .

لا العقل هـى السبيل للوصـول إلى الله ، يقول الغزالى « كـان ذلك أول حال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين تبتـل ، حين أقبل إلى غار حراء حين كان يخلو فيـه بربه ويتعبد ، حتى قالـت العرب : إن محمدا عشق ربه » .

وهكذا كان الحب الجسـدى فى آثار هؤلاء العشاق طـريقًا إلى الحب الإلهى ، إذ الجمال فى الخليقـة مـرآة جمال الله ، وهـؤلاء يـذهبـون فى شرحهـم لخلـق الكـون إلى أن الأصـل فيـه الجمال الإلهى ، وذلـك أن الصفة الجوهريـة فى الجمال هـى أنه بطبعه ميـال إلى الظهور والإيحاء بنفسه . وهذا هو الباعـث لدى الجمال الأقدس أن يخلق ليعرف بهم ، ويعتمد الصوفية فى هذا على الحديث القدسـى : « كنت مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ، فبى عرفونى » .

ولما أراد ذو الكمال المطلق والجمال الاسمى أن يعرف ، كان لابد أن يعـرف بمخلوقـات فيها نقـص وفيها شر ، ليـدل نقصهم على كمالـه وخيره كما يدل الظلام على النـور ، وقد بقيت بالضرورة فيهـم لمحات من أنوار مشوبة بألوان ظلمات ، وهذه اللمحات هـى مرآة النور المطلق الـذى لا لون لـه ، وتنأى الخلائق عـن الله بمقدار انغماسهـا فى المادة وظلماتها ، لأنها تبعد بذلك عن النور المطلق المتصف به واجب الوجود. وتقرب مـن الكمال بمقدار بعدهـا عن ظلمات المادة وتعلقها بمظـاهر الجمال والخليقـة ، وهذا الجمال هـو مرآة ذى الجلال ، حتـى ترقـى بالحب الإلهى إلى الفناء فى الذات الإلهية ، وتعـود بذلك إلى أصلها الذى صدرت عنه . فـالجمال الإلهى هو الأصل فى الخليقة ، والفنـاء فيه عن

طريق المحبة هو طريق الارتقـاء إلى العلم الأقدس ، ومن أسباب المحبة التأمـل فى جمال الوجود ، إذ أن ذلـك الجمال فيض مـن جمال واجب الوجود .

فهؤلاء العشاق من المتصوفة ـ بتأملهم فى جمال الخلق ـ يتقربون إلى جمال الحقّ ، وبطول تأملهم فيـه ، يعتريهم ذلك الشعور الفياض ، الذى يستغرقون فيـه ـ حتى يصلوا إلى حالة الوجـود ـ ويغيبون عن وعيهم الحسّى ويعتريهم من الهيام بالله ما يرقصون فيه طربًالاهـجين بذكر الله أو مردِّدين اسمه على لسانهم فى حلقات الذكر .

* * *

وهذه النماذج المختارة من قصائد الحب الإلهى عند أشهر العشاق والمتصوفة وأصدقهم تجربةً ووجدا ذات قيمة فنية وإنسانية رفيعة ، حتى وإن لم نستطـع الوصول إلى أعماق معانيهـا ودلالاتها الخبيئة . فهى أولاً تجارب حياتية صادقة لدى هؤلاء المتصوفة الحقيقيين الذين لم يكونوا فى طـريقهم أو مذهبهم بـأدعياء . ومن شأن هـذه التجارب الصـادقـة أن تثرى الحيـاة إذا انسكب تصويـرها والتعبير عنهـا من خلال أقلام ذوى المواهب والقـدرة ، وفى هذا يفترق الأدب الصوفى عن أدب الصنعة والتكلـف ، وعن أدب التكسـب والارتزاق الـذى منى بـه الشعر الغنـائى العربـى ، فاستنفـد طاقـات شعريـة خلاقـة أو كاد يستنفدها ، كانت جديرة بما هو أرقى وأسمى من عطاء الفن والخلود لو انصرفت إلى تصوير ما عانته من تجارب الحياة والعصر ، مخلصة فى التعبير عن هواجـس النفس وهموم الذات وتجارب الوجـدان . ولقد

كان الصدق دعامة الأدب الصوفى فى عصوره الأصلية ـ قبل أن يدركه التقليد على أيدى فقراء الموهبة وفاقدى التجـربة ـ وكان صدق التناول فيما بين الشاعـر ونفسه سبيلا إلى التجـويد فى التعبير عن حميّـا هذه التجارب ونضج تصويرها الفنى .

ومـن هنا ، يـلاحـظ المتأملـون فى هـذه النماذج الرفيعـة ، أن أدب الصـوفيـة فى شعرهم ونثرهـم ـ يخفى دلالتـه الايجابية المستترة على الرغم من مظهره السلبى الخادع وطابع تشاؤمه الموغل فى الحزن . ذلك أن هذا الأدب ـــ فى مجموعـه ـ كان هـروبًا من الحيـاة وانسحابـًا من الواقع المثقـل بالأسى والظلم والتخلـف ، ولكن المتصوفة عـرفوا كيف يضفـون على هـذا الهرب أبعادًا تتجـاوز مجرد الشكـوى والأنـات ، وحزن الضعف والتوانى ـ عندما هربوا بفكرهم إلى الطبقات العليا من أجواء الروح المتعالية والنفس المتسامية والخيال الحرّ الطليق .

صحيح أن هؤلاء الصـوفية ـ من العشـاق ـ قد عزفـوا عن نشدان السعادة فى هذه الحياة ، لأنهم يائسون من الظفر بها فى الحياة الدنيا ، واتجهـوا مخلصين إلى نشـدان سعـادتهم فى العـالم الآخـر داعين إلى التعجيل بالرحيل من هذه الدنيا عازفين عن كل ما تحفل به من ماديات ومتع موقـوته ، ولكنهم فى تبرير مسلكهـم هذا قد صوروا ـــ فى صدق وروعة وأصالة ـ ما حفلت به عصـورهم من شرور ومآثم ، وكانوا فى هذا المجال أعمق إدراكًا وأقوى دلالة مـن سواهم من الكتاب والشعراء الذين جاروا عصورهم ومالئوا المستبدين بها ، وتستروا على ما زخرت به مـن زيف وطغيان ، وقـد كان هذا الطغيـان فى أكثر حالاتـه طغيان

سلطان المال فى تلك المجتمعات التى استبد فيها سلطان الفرد كما انسحقت الغالبية تحت رحى الإقطاع فتلاشت مواهب كثيرة ، وتبددت طاقات خلاقة ووئدت أصوات كانت تُبشّر بانطلاقات جديدة عارمة ، وانطمست معالم الرأى السليم والفكر الناضج .

لهذا ، فلن نجد فى تاريخ الآداب الإسلامية هجاء للملوك والمستبدين أشد مما صدر عن الصوفية ، ولا ضيقًا بالمال وعُباده والمستعبدين للناس عن طريقه كما نجد فى أشعار الصوفية وأدبهم كلّه . إلى جانب ما قضوا به على الأثرة وحبّ الذات فيما صوروا ودعوا، فالحب عندهم ـ يجب أن يتسع مجاله لحب الإنسان وخدمته والرثاء له وهدايته ، دون بغض لأحد أو انتقام من أحد . ولعل « الحلاج » ـ الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ـ أكثر من التصقت به هذه الإيجابية بين الصوفية ، وتتفق الروايات القديمة فى سوقها لأخباره على الإشارة إلى دوره البارز فى عصره حين دعا إلى مذهب سياسى وروحى يقوم على فقه معين ورياضيات صوفية تتميز كلها بالتطرف والشدة والإصرار على الوصول إلى الهدف مستهينًا بالعقبات ولو بلغت الموت نفسه ، وحاول أن يجد له أنصارًا بين الفقراء والطوائف المختلفة والمعارضين للدولة العباسية دون جدوى .

وفى أثناء القحط والمجاعة وخطر الدولة الفاطمية ـ على الدولة العباسية الموشكة على السقوط أمامها ـ وارتفاع الأسعار ، وكسر السجون وإحراق الجسور وسقوط الوزارة وعزل الخلفاء ، وجد الوزير حامد بن عباس أن قتل الحلاج قد يشغل الناس ويخفف من

التوتـر الاجتماعى والسيـاسى ويلقـى الرعـب فى قلوب المعـارضـين ، وانتهى الأمر بالحكم على الحلاج بالإعدام ، ضرب ألف جلدة ثم قطعت أطرافـه الأربعة وضربت عنقه وأحـرقت جثته ثم ذرى رمـاده فى دجلة وحمل رأسـه إلى خـراسـان حيث كـان لـه فيهـا أصحـاب وأتبـاع ومريدون[1].

يقول الحلاج فى وصف موعد حب :

لى حبيـــب أزور فى الْخلـــوات
حـــاضر غـــائب عـــن اللحظـــات

مـــا تـرانـــى أصغـى إليـــه بسرى
كـى أعـــى مـــا يقـــول مـن كلمات

كلماتٍ مـــن غير شكـــلٍ ولا نقـــْطٍ
ولا مثـــل نغْمـــةِ الأصـــواتِ

فكـــأنـــى مُخاطـــبٌ كنـــتَ إيـّاه
على خـــاطـــرى ، بـــذاتـــى لـــذاتـــى

حـــاضرٌ غـــائب قـــريـــبٌ بعيـــدٌ
وهـــو لم تحْوهِ رســـومُ الصفـــاتِ

هــو أدنـى مـن الضمير إلى الـوهـمِ
وأخفـــى مـــن لائح الخطـــراتِ

ويقول الحلاج ــ وهو معنى انتهبـه من بعده كثير مـن الشعراء ،

---

(١) ديوان الحلاج « المقدمة » تحقيق الدكتور / كامل مصطفى الشيبى (بغداد) .

وأداروه على محاور عدة فى الغزل الحسّى ، بما يخرجه عن طابعه الصوفىّ الأصيل ـ :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا
نحن روحان حلَلْنا بدَنا
نحن ، مذكناّ على عهد الهوى
نَضربُ الأمثال للناس بنا
فإذا أبصْرتنى أبصْرته
وإذا أبصْرته أبصرْتنَا
أيها السائل عن قصّتنا
لو ترانا لم تُفرق بيْننا
روحه روحى وروحى روحه
من رأى روحين حلَّت بدَنا

ومن الأشعار المنسوبة إلى الحلاج ، والعميقة الدلالة فى الإبانة من مذهبه وأسلوبه فى تمثل الحب الإلهى ، مقطوعة ذاعت شهرتها على الألسنة والأقلام ونسب بعض أبياتها إلى شعراء آخرين من شعراء العصر العباسى وأصبح جزءًا من تراثه الغنائى .

يقول فيها الحلاج :

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وحبّك مقرونٌ بأنفاسى
ولا جلستُ إلى قوم أُحدّثهم
إلا وأَنت حَديثى بين جُلّاسى

ولا ذكـرتـُـك محزونـًا ولا فــرحـًا
وإلا وأنـت بقلبـى بينَ وســواسـى
ولا هممـت بشرب الماء مــن عطـش
إلا رأيـت خيــالاً منـك فى الكـــاس
ولـو قـدرْت على الإتيــان جئتكمـو
سعيًا على الوجـه أو مشيًا على الراس
ويـا فتـى الحىِّ إن غنيتَ لى طـربـًا
فغـنِّ وارحْمتـًا من قلبـك القـاسـى
مـا لى وللنـاس كم يلحـوْننـا سفهـًا
دينـى لنفسى وديـن الناسِ للنـاسِ

ويبدو أن المستشرق الفرنسـى ما سينيون هو صـاحب الفضل فى إحيـاء ذكر الحلاج منـذ بدايـة القرن العشريـن ، عندمـا نشر ديوانـه وكتابه الهام الطـواسين والنصوص التى دارت حولـه ، ونبّه إلى أهمية الحلاج من خـلال رسالته عنه التـى أسماها « عذاب الحلاج » ومقـاله الهام الذى أسماه « المنحنى الشـخصـى فى حياة الحلاج » حيث تحدث عن عظاتـه ومواجده وبثه لـلآراء الإصلاحية واتصالـه ببعض وجوه الدولـة العباسية وجمع الفقراء مـن حوله ، ممـا أدى إلى نهاية الحلاج المأساوية جزاء فكره وثوريته ، وهو المعنى نفسه الذى أخذ به الشاعر الراحل صلاح عبـد الصبور حين كتب مسرحيته الشعرية عـن مأساة الحلاج ، جـاعلاً منـه داعية ورمـزًا للثـورة والتمرد ونصيراً للفقـراء والمعدمين ، وشهيدًا من شهداء الكلمة والإيمان بالحرية .

يقول صلاح عبد الصبور على لسان الحلاج :

أراد الله أن تجلى محاسنه وتستعلن أنواره
فأبدع من أثير القدرة العليا مثالاً صاغه طينا
وألقى بين جنبيه ببعض الفيض من ذاته
وحلاه وزينه ، فكان صنيعه الإنسان
فنحن له كمرآةٍ ، يطالع فوق صفحتها
جمال الذات مجلوا ، ويشهد حسنه فينا
فإن تصْفُ قلوب الناس ، تأنس نظرة الرحمن
إلى مرآتنا ، ويديم نظرته ، فتحيينا
وإن تكدُرْ قلوبُ الناسِ يصرفْ وجهه عنَّا
ويهجرنا ويجفونا
وماذا يفعل الإنسان إن جافاه مولاه ؟
يضيق الكون فى عينيه ، يفقد ألفة الأشياء
تصير الشمس فى عينيه أذرعةً من النيران
يُلقى ثقلُها المشّاء
على وجه السَّما والأرض ألوانا من اللهب
ويضحى البدر دائرةً مهشمة رمادية
من القصدير ميتةً وملقاة على بيداء
فقد جفّت عيون الناس ، أضحت نقطة سوداء
وتذوى أذرعُ الأشجار ، تلقى حملها للأرض
وتدفنه كمجهضة تُكفّنُ عارهَا فى الطين

ويمشى القحطُ فى الأسواقِ ، يجبى جزيةالأنفاس
من الأطفال والمرضى
حقيبته بلا قاع ، فلا تُملأ إذ تعطى
ورغبته بلا رِىٍّ ، فلا تسكت أن تسأل
وخلفَ القحطِ ، يمشى تحت ظلِّ البيرق المُسْدلْ
جنودُ القحْطِ ، جيش الشرِّ والنقمة
خلائقهم مشوهةٌ ،كَـأَنَّ الذيلَ فوق الرأس
يقود خطاهمو إبليس وهو وزيُر مُلْكِ القحْط
وليس القتل والتدجيلُ والسَّرقُ
وليس خيانةُ الأصحاب والمَلَقُ
وليس البطشُ والعدوانُ والخَرَقُ
سوى بعض رعايا القحْطِ ، جند وزيره إبليس
تعالى الله ، قد يأنفُ أن ينظر فى مرآتنا ذاته
فيصرف وجهه عنَّا ،
فكيف إذن نُصفّى قلْبنَا المُعتمْ
ليستقبل وجه الله ، يستجلى جمالاته
نُصلِّى ، نقرأ القرآن ،
نقصد بيته ، ونصوم فى رمضانْ
نعمْ ،
لكنَّ هذى أول الخطوات نحو الله
خطى تصْنعها الأبدان

وربّى قصدُه للقلب
ولا يرضى بغير الحبّ
تأمل ، إن عشقتَ ألستَ تبغى أن تكون شبيه محبوبِكْ
فهذا حبنا لله
أليس الله نور الكون !
فكن نورًا كمثل الله
ليستجلى على مرآتنا حسْنه

وحين يقف الحلاج بين يدىْ جلّاديه من قضاة عصره ـ الذين باعوا ضمائرهم للسلطان وأعمتهم الغواية عن رؤية الحق ومعاينته فأصدروا حكمهم من قبل أن تبدأ المحاكمة ـ يهدر صوت الحلاج فى مسرحية صلاح عبد الصبور مُلوحًا فى وجه هؤلاء الذين يحاكمونه بأنهم ليسوا قضاته ، ولذا فلن يدافع عن نفسه ضدَّ اتهامه بإفساد صعاليك العامة .

يقول الحلاج :

أنا رجلٌ من غمارِ الموالى ، فقير الأرومة والمنْبتِ
فلا حسبى ينتمى للسمّاءِ ، ولا رفعتْنى لها ثروتى
ولست كآلافِ مَنْ يولدون بآلاف أيامِ هذا الوجود
لأن فقيًرا بذات مساءٍ سعى نحو حضنِ فقيرة
وأطفأ فيه مرارةَ أيامه القاسية
نموت كآلاف من يكبرونَ ، حين يقتاتون خُبزَ

الشموسْ
ويُسقونَ ماءَ المطرْ
وتلقا همو صبيـةً يافعين حـزانى على الطـُرقاتِ
الحزينة
فتعجب كيف نموْا واستطالوا وشبت خُطاهُم
وهذى الحياةُ ضنينةْ
تسكّعـت فى طـُرقاتِ الحيـاةِ ، دخلـت سراديبهـا
المُوحشاتْ
حجبت بكفى لهيب الظهيرة فى الفلوات
وأشعلت عينى ، دليلى ، أنيسى فى الظلمات
وذوّبت عقلى ، وزيت المصابيح ، شمس النهار
على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين ، ككلب يشم روائح صيد
فيتبعهـا ، ثـم يحتـال حتى ينـال سبيـلا إليهـا
فيركض ، ينقض
فلـم يسعد العلـم قلبى،بـل زادنى حيرة واجفـة
بكيت لها وارتجفت
وأحسسـت أنـى وحيد ضئيل كقطرة طـل، كحبة
رمل
ومنكسر تعس ، خائف مرتعد
فعلميَ ما قادنى قط للمعرفة

وهبنى عرفت تضاريس هذا الوجود
مدائنه ، وقراه ووديانه ، وذراه
وتاريخ أملاكه الأقدمين
وآثار أملاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود ، ومقصده ، مبتدا
أمره، منتهاه
لكى يرفَعِ الخوفَ عنّىَ،خوْفَ المنونِ، وخوْفَ
الحياةِ، وخوفَ القَدرْ
لكى أَطمئن .
سألت الشيوخَ ، فقيل :
تقَرَّبْ إلى الله ، صلِّ ليرفعَ عنك الضلالَ ، صلِّ
لتسعدْ
وكنت نسيتُ الصلاة ، فصلَّيْتُ لله ربِّ المنونِ ،
وربِّ الحياة ،وربِّ القَدرْ
وكان هواءُ المخافة يَصْفِرُ فى أعظمى ويئزّ كريحِ
الفَلا
وأنا ساجدٌ راكعٌ أتعبدْ
فأدركتُ أنىَ أعبدُ خوفىَ لا الله
كنت به مشركًا لا موحِّد
وكان إلهىَ خوفى
وصليتُ أطمعُ فى جنته

ليختالَ فى مُقلتىَّ خيالُ القصورِ ذوات القبابْ
أسمع وسوسة الَحلْىِ ، همسَ حرير الثيابْ
وأحسستُ أنى أبيع صلاتى إلى الله
فلو أُتقنت صَنعة الصلوات لزادَ الثمن
وكنت به مشركًا لا مُوحدْ
وكان إلهى الطمع
وجير قلبى الطمع
تُرى ، قُدّر الشركُ للكائنات
وإلا فكيف أصلى له وحده
وأُخلى فؤادىَ عما عداه
لكى أَنزع الخوْفَ عن خاطرىِ لكى أطمئن
لكى أطمئن

فى هذه المونولوجات الطويلة على لسان الحلاج ، يتضح مدى استيعاب صلاح عبد الصبور لأدقّ أسرار التجربة الصوفية ، عند كبار العشاق والمحبّين ، من نفى للقدرة على المعرفة بواسطة العقل ، فالقلب هو المدخل والطريق ، ورفضٍ لفكرة أن تكون العبادة قائمة على مجرد الخوف أو الطمع ، حتى يكون أساسها المحبة والتوجه الخالص ، والذوبان والفناء فى المعشوق ، عندئذ ينتزع الخوف من المحب وتسكنه الطمأنينة ويتحرر من الرغائب والشهوات . ويستمر صوت « الحلاج » يفيض بالتحدى ويبتل بالمزيد من الشجون ، ويبْدىَ بلغة الإفضاء ومكاشفة الأسرار :

كما يلتقى الشوقَ الصحارى العطاشِ ، بشوقِ
السحابِ السخىّ
كذلك كان لقائى بشيخى
أبى العاص عمرو بن أحمد ، قدَّسَ تُرْبتَه ربُّه
وجمَّعنا الحبُ ، كنت أحب السؤال ، وكان يُحب
النّوال
ويُعطِى ، فيبتلُّ صخرُ الفؤاد
ويُعطى ، فيخضر غصْنى
ويعطى ، فيُزهر نُطقى وظنّى
ويخلعُ عنى ثيابى ، ويُلبسنى خِرْقةَ العارفينْ
يقولُ هو الحب ، سر النجاةِ ، تعشّق تفز
وتْفنَى بذاتِ حبيبك ، تصبحُ أَنتَ المصلّى ، وأنتَ
الصلاة وأنت الديانةُ والربّ والمسجدُ
تعشّقتُ حتى عشقتُ
تخيلتُ حتى رأيت
رأيت حبيبى ، وأتحفنى بكمالِ الجمال، جمال
الكمالْ
فأتحفته بكمال المحبة
وأفنيتُ نفْسىَ فيه

* * *

هذه السطور العامرة بنفحات الوجد وحرارة المعانة وفرح المعاينة والانكشاف هى دليل على امتداد خيوط التجربة الصوفية فى العشق الإلهى حتى يومنا هذا، وكيف أن التألق فى التعبير عنها رهن بتوافر الصدق الشعورى الذى يتوهج من خلال قيم التعبير، لتكتمل لهذه التجربة أبعادها فى الحس والتذوق وآثارها فى القلب والوجدان.

ولسوف تستمر هذه الخيوط والروافد، مستمرة وممتدة، فى رحلة الإنسان مع الكون، ما بقى هذا الإنسان، وما استمر انخلاعه وانخطافه نحو المجهول، واحتضانه لطمأنينة الإيمان واليقين، وتوجهه بالمحبة الكاشفة التى تنفض عنه الخوف وتملأ زوايا نفسه بالخشوع، وتفجر هذا الشعر الأصيل النبيل، المتوهج بعطاء الرحلة، المثقل بمخاطر الترحال.

فمادام المحبوب هو الحق، فإن العارف يظل دائم المشاهدة له وكلما ازداد مشاهدة زاد هياما ووجدا فالاشتياق يهيج باللقاء، ويُظمئه الوصال، وتشعله المعاينة، وكلما اجتمع العاشق بمحبوبه أدرك أنه لا يشبع من مشاهدته ولا يروى ظمأه منه، فكلما نظر إليه زاد وجدًا به وشوقاً مع حضوره معه.

ومن عجب أنى أحنُّ إليهمو
وأسأل شوقًا عنهمو وهمو معى
وتبكيهمو عينى وهم فى سوادها
وتشتاقهم نفسى وهم بين أضلعى

تعاظمني ذنبي

للإمام الشافعي

« تعاظمني ذنبي ، فلما قرنْته
بعفْوك ربّي ، كان عفْوكَ أعْظمَا
ومازلْتَ ذا عفوٍ عن الذَّنْبِ ، لم تَزلْ
تجودُ وتعفو منّةً وتكرما »

« هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ، يتصل نسبه بنسب الرسول الكريم ، ولد بغزة ، ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، «وحُببَ إليه العلم منذ صباه فجالس العلماء وأخذ عنهم ، ثم وفد على الإمام مالك فى المدينة وحفظ الموطّأ ، ثم ارتحل إلى اليمن فالعراق ينشر علم الحديث وفقه السنة ويستخرج الأحكام ثم جاء إلى مصر سنة مائة وتسع وتسعين هجرية، وصنَّف فيها مذهبه وألف فى علم الأصول ، واعترف له الناس بالإمامة وأصبح أحد الأئمة الأربعة المجتهدين . وتوفى بمصر سنة مائتين وأربع هجرية عن أربع وخمسين سنة » .

يقول الإمام الشافعى :

إليــكَ إلــه الخلــق أرفــعُ رغبتــى
وإن كنــتُ يا ذا المن والجودِ مجرمــا

ولما قســا قلبــى وضَـاقـتْ مــذاهبــى
جعلــْتُ الــَّرجــا منــى لعفــْوِكَ سُلما

تعــاَظَمنـــى ذنبــى فلما قــَرنتــُه
بعفــوكَ ربـــِّى كــان عفــُوكَ أَعْظَمَا

ومازلــْتَ ذا عْفوٍ عــن الَّذنــبِ لم تَزلْ
تجوُّد وتعفـــو منـــّـةً وتكـــرمــــا

ولــولاك مــا يقْــوى بإبليــس عــابــدٌ
وكيــف وقــد أغـــْوى صفيــَّكَ آدمــا

فــإن تعــفُ عنى تعــفُ عــن متمــرد
ظلـــوم غشــُومٍ لا يـــزايــلُ مـــأْتماَ

وإن تنتقــمْ منـــِّى فَلســْتُ بــآيــسٍ
ولو أدخلــتْ نفسى بِجـُرمِى جَهنَّمًا

فجــرمى عظيــمٌ من قــديمٍ وحــادثٍ
وعفــْوُك يــأتــى العبــدَ أعلَى وأجْسَما

تعــاظمنى ذنبــى ، فأقبلــت خاشعـًا
ولــولا الرضــا مــا كنت يــاربِّ منعما

حـوالى فضـلُ الله مـن كـلِّ جـانـبٍ

ونـورٌ مــن الـرحمن يفترشُ السَّما

وفى القلـب إشراقٌ المُحـب بـوَصْلـهِ

إذا قـارب البشرى وجازَ إلى الحمـى

حــوالى إينــاسٌ مــن الله وحــْدَهُ

يُطـالعنــى فى ظُلمـِة القلــْبِ أنجُما

أصــون ودادى أن يــدنّسـهِ الهوى

وأحفـــظُ عهـــدَ الحبِّ أن يتثلَّما

ففى يقْظتــى شوقٌ وفى غَفْوتــى مُنىً

تـلاحــق خَطْوى نشــوةً وتـرنّما

ومن يعتصـم بالله يسلمْ مـن الورى

ومـن يـرجُـهُ هيهــات أن يتنـدَّمـا

إليــك إلـــه الخلـقِ ، أرفـُـع رغْبتـــى

وإن كنتُ ياذا المنِّ والـوجودِ مجرما

هــوانا حجــازى

لأبى حمزة الخراسانى

أراك وبــى مــن هيبتــى لــك وحشــةٌ
فُتؤنسنــى باللطـفِ منك وبــالعطفِ
وتُحيــى مُحبــا أنــت فى الحب حتفــه
ومن عجــبٍ كونُ الحياة مــع الحتْفِ

« هو أبو حمزة الخراسانى من كبــار أعلام القرن الثالث الهجرى ، أقام بنيسـابور وصاحب الجنيـد والخراز وأبا تراب ، وذاعت له شـهرة واسعة بفضل علمه وورعه وتقاه ، توفى سنة مائتين وتسعين هجرية ، وله قصائد تفيـض بصدق العاطفة الدينيـة وسُموّ الحب الإلهى ، من بينها هذه المقطوعة التى أنشدها فى معنى الشهود والرضا بالحبيب » .

يقول أبو حمزة الخراسانى :

أهـابُك أن أُبـدى إليـك الذى أُخفـى
وسرِّىَ يبـدى مـا يقـولُ لـه طـرْفى

نهانى حيـائى منك أن أكتـُم الهوى
وأغْـنَيْـتَنِى بالفهم منك عن الكشفِ

تلطّفتَ فى أمـرى فأبـديَت شـاهدى
إلى غائبـى واللُطفُ يـدركُ باللطـفِ

تـراءيـتَ لى بـالغيـبِ حتـى كـأنما
تُبشّرنـى بـالغيـبِ أنـك فى الكـفٌ

أراك وبـى مـن هيبْتـى لـك وحشـةٌ
فتؤنسنـى باللُّطف منك وبـالعطفِ

وتُحيـى مُحبـاً أنـت فى الحبّ حتفـه
ومن عجـبٍ كونُ الحياة مـع الحتْفِ

فيا شـوقُ رفْقاً بـالذىٍ أنـت مُشعلٌ
فلـوعتُك الحرّى تجلٌّ عـن الوصـفِ

ويـا قلـبُ هـذا مـوعـد لمتيـّمٍ
تفيض دموع العين منـهُ ، ولا تكفى

ويا نفـسُ هبت مـن رياض أحبتـى
نسائم جادت حُفّلاً مـن شذا العرفِ

تـُراوحنـــا ريـّا الصَّبـــا فى هُبـــوبها

فــأنشـــقُ منهـا مــا يُقبّلـــه طــرفى

هــوانــا حجــازىٌّ ونجـدٌ هــى المنــى

وإصباحُنا المأمــول يَخفى ولا يُخفى

مُعنـّى ومــا بين الأضـــالــع ســورةٌ

غــوائلهــا تــرتــج فى هــزة الــرجــفِ

ومــاضٍ لما أَسْعــى إليـــه ، كــأننــى

أسيرُ على ظلِّى وأسعـــى إلى حتفـــى

فلـــو أبصرتْنــى أعينٌ مستهـــامـــةٌ

لفاضت مــآقيها دمًا ســاخــنَ الوكْفِ

وكيف أهابُ الزَّحفَ أو أرهبُ السُّرى

إذا كان مــن أَهواه مولاىَ فى الــزَّحْفِ

أمــولاى صبرنــى على ما أصــابنــى

فأنــت الذى تكفى وأنت الــذى تُعفى

ولا تجعلــنْ حبــلَ العــذاب مُخلـــدًا

ولا كالــذى عذَّبتَ قارون بــالـخسْفِ

وهـــا أنـــا أخفــى الــدمــع والسر بيّنٌ

بوجهى، وتأبى المقْلتانِ سوى الذَّرفِ

يُبين لســانـــى عــن فـــؤادى وربَّما

أسر لسانـــى ما يبــوحُ به طــرفى [1]

---

(١) هذا البيت والأبيات الثلاثــة السابقة له تروى ـ مع اختلاف فى السياق ـــ للشاعر العباس بن الأحنف .

غـــريب الـــدار

للـــــبرعى

« إلـهى أقلْنـــى عثْــرتــــى ، وتـــولّنـــى
بعفـــوٍ ، فـــإن الـنـــائبـــات لها عُنــفُ
خلعـــتُ عـــذارىَ ثــم جئتـــك عـــامـــدا
بعذرى ، فــإن لم تعفُ عنّى، فمــن يعفو »

« عــاش الإمام عبــد الرحيــم البرعى فى القــرن الخامس الهجــرى ، ويقال إنه أول من توله فى حب الرسول الكريم ، وشعره يدل على صدق العاطفة فى الحب ، مع سهولة ورقة فى التعبير .

والبرعى يمنى الأصــل ، حجَّ عدة مرات ، وتوفى فى الطريـق من مكة إلى المدينة ودفــن بوادى البرعــى ـ وله ديــوان مجموع مطبــوع يضم أشعاره فى الحب الإلهى والمدائح النبوية » .

يقول البرعي :

عسى من خفيِّ اللطف سبحانَهُ لُطفُ

بعطْفة برٍّ ، فالكريم له عطفُ

عسى من لطيف الصُنع نَظرةُ رحمةٍ

إلى من جفاهُ الأهل والصحبُ والإلفُ

عسى فرجٌ يأتى به الله عاجلاً

يُسرُّ به الملهوفُ إذ غمّه اللهفُ

عسى لغريب الدار تدبير رأفةٍ

وبرٌّ من البارى إذا العيش لم يصفُ

عسى نفحةٌ فرديةٌ صمديةٌ

بها تنقضى الحاجات والشمل يلتفُ

فإنىَ والشكوى إلى الله ، كالذى

رمى نفْسه فى لجةٍ موجُها يطفو

فمن محن الأيام قلبى معذّبٌ

أَلَمَّ بروحى قبل حتْفِ الفنا حتْفُ

وإنى لأرضى ما قضى الله لى ولو

عَبدْتُ على حرفٍ لأزوى بىَ الحرْفُ

ولم أبْن حُسنَ الظنِّ فى سيدى على

شَفا جُرفٍ هارٍ فينهار بى الجرفُ

ولكــن دعــوت الله يكشــفُ كــربتــى

فما كــربــة إلا ومنــه لها كشــفُ

فكم بُسطــت كـفّ بســوء تــريــدنــى

فقـــال لها الكـــافى ألا غُلـــب الكـــفُ

وكـم هــم صرفِ الـدهـر يصرفُ نــابــه

على ، فجـــاء الغـــوثُ وانصرف الصرفُ

ولم أعتصــــمْ بــــالله إلا ومــــد لى

مــن البِرِّ ظــلا فى رضـــاه لـــه وكـْفُ

وإنــى لمستغـــن بفقــرى وفـــاقتــى

إليـه ، ومُستقــوٍ وإن كـان بــى ضعـْفُ

وفى الغيــب للعبــد الضعيــف لطــائفٌ

بها جفـّت الأقـــلام وانطـوت الصحـــفُ

فكـــم راح روح الله فى خلقـــــه ، وكـــمْ

غـدا قبــل أن يـرتــدَّ للنــاظــر الطـرفُ

بقـــدرة مـن شــدّ العـرى وبنـــى السما

طــرائق فـوق الأرض فهــى لها سقــفٌ

ومن نصــب الكرسىّ والعـرش ، واستوى

على العـرش والأمـلاك مـن حـولـه حفـّوا

ومـــن بســـط الأرضين فهـــى بلطفـــه

لحىِّ بنـــي الـــدنيـــا وميّتهـــم ظـــرْفُ

وألقــى الجبــال الشــمَّ فيهــا رواسيــًا
فليـس لها مــن قبـلِ مـوعـدهــا نسْـفُ
وألبسـهــا مـن سنــدس النَّبـتِ بهجــةَ
مــن القطـر مـا صِنْـفٌ يشـابهه صِنْـفُ
وسخــرَّ مـــن نشر السحــاب لــواقحــًا
إذا انتشرت درَّت سحــائبهـا الــوطــفُ
وأنشــأ مــــن ألفـــافهــا كـــلَّ جنــة
بها الأبُّ والــريحانُ والحَب والعصـْـفُ
ويعلــم مسرى كـــلِّ ســـارٍ وســــارب
ومــا أعلنـــوه مـن خطـايـا ومــا أخفـوا
ويـدرى دبيـب النمـل فى الليـل إن سَعـتْ
وإن وقفـت مـا أمكـن السعـُى والـوقـفُ
ووزن جبـــال كـــم مثـــاقيـــل ذرةٍ
وكيـــْل بحـــارٍ لا يغيِّضهـــا نــــزْفُ
وكـمْ فى غــريـب الملـك والملكـوت مــن
عجــائب لا يُحصــى لأيسرهــا وصـْـفُ
فسبحـــانــه إن هــمَّ وهـــمٌ لــذاتــِه
بكـــف وتكييـــفٍ يُلجِّمـــهُ الكـــفُ
ولم تُحِط الســتُّ الجهــاتُ بـــذاتـــه
فـأيـن يكـون الأيـْنُ والقَبـْلُ والخلـْفُ

إلهى أقلْنـــى عثـــْرتـــى وتـــولَّنـــى
بعفـــو فـــإنَّ النـــائبـــاتِ لها عنـــْفُ
خلعـــْتُ عـــذارى ثًـم جئتـــكُ عـــامـــدًا
بعـــذرى ، فـــإن لم تَعفُ عنـــى فمـــن يعفـــو
وأنـــت غيـــاثـــى عنـــد كـــلِّ ملمـــةٍ
وكهفـــى إذا لم لى يبـــق بين الـــورى كهـــف
فكـــم صـــاحـــب رافقتـــه ليكـــون لى
رفيقًا ، فـــأضحى وهـــو بادى الجفـــا خُلفُ
ومـــا شئـــت مـــن قـــومٍ أعـــدُّ صـــديقهـــم
إذا استنصروا زالـــوا وإن وزنـــوا خفّـــوا
طبـــــاع ذئابٍ فى ثيـــــابٍ جميلـــــةٍ
بصـــائرهـــم عُمـــىٌ ، قلـــوبُهمـــو غُلـــْفُ
تلـــــوحُ عليهـــــم للنفـــــاق دلائلٌ
وبـــالحكِّ يبـــدو الزيـــف والـــذَهَـــبُ الصّرفُ
فحُـــلْ سيـــدى مـــا عشـــتُ بينـــى وبينهـــم
بحـــوْلـــك حتـــى يخضـــع الفـــرد والألـــْفُ
لأنـــك معـــــروفى ومنـــك عـــــوارفى
إذا استُنكـــر المعـــروفُ وانقطـــع العـــُرْفُ
وأثبـــت بنـــور العلـــم والحلـــم منـــك لى
سعـــادة حـــظ مـــا لمثبتهـــا حـــذْفُ

وأيـّد بحــرف الكــاف والنــون حُجّتــى
ليسبــق لى مـــن كـلٍّ صــالحةٍ حــرفُ
وأكـــرْم لأجلى مـــن يلينـــى وأعطنـــا
مـن النـــار أمْنـًا يــوم كـُلٌّ لـــه ضعـفُ
وصـــــلّ على روح الحبيـــب محمــــدٍ
صــلاةً عـــلاهـا النــور وانتشر العـَرْفُ

نــار ليــلى

للشّهرزورى

نـــارنـــا هـــذه ، تضـــىء لمن يســْـــ
رى بليـــلٍ ، لكنّهـــا لا تنيـــلُ
هــذه حـــالُنـــا ، ومـــا وصـــل العلْـــ
مُ إلينـــا ، وكـــلُّ حـــالٍ تحولُ

« هو عبد الله بن القاسم الشهـرزورى ـ نسبه إلى مدينة شهرزور فى كردستان ، شاعر عالم وأديب فقيه ومحدث بارع حكيم . توفى سنة خمسمائة وإحدى عشرة هجـرية ، وهـو قليل الحظ مـن الشهرة بين الأدباء والمتأدبين وإن كان عظيم القدر بين عشاق المتصوفة فى زمانه .

وهو فى قصيدته هذه ينسج على منـوال غير مألوف عندما يستهلها بـوصـف ابتداء الـرحلـة ، رحلـة البحـث عـن الحقيقة المطلقـة ، عـن معشوقتـه.. ليلاه ، ثـم يصف أشـواق الرحلـة وما لاقـاه من معـاناة ومكـابدة ، وصـولاً إلى النار التـى كـان يظنها ستنيـل ، حيث الظفـر بالوصال ولقاء المحبوب » .

يقول الشهرزورى :

لمعتْ نارهم وقد عسعسَ الليْـ
ـلُ ، وملَّ الحادى ، وحار الدليلُ

فتأملتها وفكرى من البيْـ
ـنِ عليلٌ ولحْظُ عينى كليلُ

وفؤادى ذاك الفؤادُ المعنَّى
وغرامى ذاكَ الغرامُ الدخيلُ

ثم قَبلتُها وقلتُ لصحْبى
هذه النارُ ليلى فميلوا

فرَموا نحْوهَا لحِاظًا صحيحا
تٍ ، فعادت خواسئًا وهى حُول

ثم مالوا إلى الملام وقالوا
خُلَّبٌ ما رأيْتَ أم تخييلُ

فتجنبتهم ومِلْتُ إليها
والهوى مركبى وشوقى الزميلُ

ومعى صاحبٌ أتى يقتفى الآ
ثارَ والحبُّ شأنهُ التطفيلُ

فدَنونا من الطلولِ ، فَحالتْ
زفراتٌ من دونها وعويلُ

قلتُ : من بالديار ؟ قالت : جريحٌ
وأسير مُكَبَّلٌ ، وقتيلُ

مالـذى جئْتَ تبتغى ؟ قلـت : ضيفٌ
جـاء يبغـى القرى ، فـأيـن النـزُولُ
فـأشارتْ بـالرّحـب دونـك فاعقـرْ
هـا فما عنْدنـا لضيْف رحيـلُ
مـن أتـانـاألقـى عصـا السيْر عنـه
قلـت : مـن لى بذا ؟ وكيـف السبيـلُ
فحططْنـا إلى منـازل قـوم
صرعتهـم قَبـْلَ المذاق الشَّمـولُ
ومـن القـوم مـن يشيرُ إلى وجـْ
ـد تبقـَّى عليـه منـهُ القليـلُ
قلـت : أهـل الهوى سـلامٌ عليكـم
لى فـؤادٌ عنكـم بكـم مشغـولُ
لم يـَزلْ حـافـز مـن الشـوق يحدو
بـى إليكـم والحادثـاتُ تحولُ
جئـتُ كـى أصطلى ، فهـل لى إلى نـا
ركمـو هـذه ، الغـداةَ سبيـلُ
فـأجـابـت شـواهـد الحال عنهـم
كـلُّ حـدٍّ مـنْ دونها مفلـولُ
نـارُنـا هـذه ، تضُـىء لمن يسـ
ـرى بليـلٍ ، لكنهـا لا تُنيـلُ
هـذه حـالُنـا ، ومـا وصـل العلـ
ـم إلينـا ، وكـلُّ حـال تحولُ

تــه دلالاً

لابن الفارض

كـــلُّ مـــــن فى حماكَ يهواكَ ، لكـــن
أنـــا وحــدى بكـــل مــن فى حماكـــا
يُحشر العـــاشقـــون تحت لـــوائىِ
وجميـــــع الملاحِ تحْتَ لــــواكـــا

« هو إمام المحبين وسلطان العاشقين أبـو حفص عمر بن الفارض ولد فى القـاهرة سنة خمسمائة وسـت وسبعين هجرية لأسرة شـامية الأصل تنتسب إلى مـدينة حماة ،ونشأ نشأة دينية فى كنـف والده ابن الفارض الذى كان أحد كبار علماء الدين فى زمانه ، وأتيح له أن يدرس الفقــه والحديـث وأن يتردد على مجالـس العلم ، وأن يـدرس طـريـق الصوفية متنقـلاً فى سياحته الروحيـة بين وادى المستضعفين فى جبل المقطم وأوديـة مكة التى قضــى بها خمسة عشر عـاما عاد بعـدها إلى مصر مفعمًا بالأشواق والوجد والهيام حيـث كانت وفاته سنة ستمائة واثنتين وثلاثين هجرية .

وقد اشتهر شعره لامتــلائه بالمعانى الصوفية الرمـزية ، ولقوة ما تميز به من أداء وتعبير ، وعاطفة حارة متوهجة ، وخيال محلق » .

يقول ابن الفارض :

تـــه دلالاً فـــأنـت أهـــلٌ لـذاكـــا
وتَحكـّمْ فـــالحسـن قـد أعطـــاكـا
ولـك الأمرُ فـاقـضِ مـا أنتَ قـاضٍ
فعليَّ الجمالُ قـــــد ولّاكـــــا
وتـــَلافى إن كـــان فيـــه ائتـــلافى
بـكَ ، عجـِّل بـه جُعلـتُ فـداكـا
وبما شئــت فى هـــواكَ اختبرنـــى
فـاختبـارى مـا كان فيـه رضـاكـا
فعلى كـــلِّ حـــالـــةٍ أنـت منـّى
بـــى أولى ، إذْ لم أكـــنْ لـــولاكـا
وكفـــانـــى عـــزًّا بحبـــّك ذُلِّى
وخضـوعـى ، ولست مـن أكفـاكـا
وإذا مـا إليـك بـالـوصـــل عـزَّتْ
نسبتـــى عـــزَّةً وصــــحَّ ولاكـــا
فـاتهامـى بالحب حسْبـى ، وإنـى
بين قـــومـى أُعـــدُّ مـــن قَتْلاكـــا
لـــك فى الحيِّ هـــالـــكٌ بـك حـــىٌّ
فى سبيـــل الهوى استلـــذَّ الهلاكـــا
عبـــد رقٍّ مـــارقَّ يـــومـــًا لعتـــق
لـــو تخَليـْتَ عنـه مـــا خـــلّاكـــا

بجمالٍ حجبْتــــــهُ ، بِجــــــلالٍ

هــامَ واستعــذَب العـذابَ هنــاكــا

وإذا مـا أمــنُ الـرجـا منـه أدنـا

كَ ، فَعنــهُ خــوفُ الحِجى أقصــاكــا

فبـإقــدام رغبـةٍ حين يغشـــا

كَ ، بـإحجـامِ رهْبــةٍ يخشـاكــا

ذاب قلبـــى فــأذَنْ لـــه يتمنـــًّا

كَ ، وفيـــه بقيــةٌ لـــرجـــاكــــا

أومـــر الغمْـضَ أن يمــُرّ بِجفْنـــى

فكـــأنّــى بـــه مُطيعــًا عصــاكــا

فعســى فى المنـام يعرضُ لى الـوهـــ

ــمُ ، فيــوُحـــى سرًا إلىَّ سُراكـــا

وإذا لم تُنعــش بــــروح التمنـّى

رمقــى ، واقتضــى فنــائى بقــاكــا

وحَمت سُنـــةُ الهوى سِنــةَ الغَمــْـ

ــض جفـُونــى ، وحرَّمـت لُقْيـاَكـا

أَبـْقِ لى مقُلـــةً لعلِّــــىَ يــومـًا

قبــل مــوتـــى أرى بها مــن رآكـــا

أيــن منّى مــا رمتُ هيْهـاتَ ، بل أيــــ

ــنَ لعينـى بـالجفــنِ لَثـْمُ ثـراكـا

فَبشيرى لــو جـاء منـْكَ بعطـْفٍ

وو جـودى فى قبضتـى ، قلتُ هـاكـا

قـد كفـى ما أرى دمـا مـن جُفـونٍ

بـك قرْحـى ، فهل جـرى مـا كفاكـا

فـأجـِـر مـن قسِلاكَ فيك مُعنـىًّ

قبـل أن يعـرفُ الهوى يهواكـا

هبـْكَ أنَّ الـلاَّحـى نهاهُ بِجهـلٍ

عنـْكَ قـُلْ لى عن وصلـه مـنْ نهاكَا

وإلى عِشْقـكَ الجمالُ دعـاهُ

فـإلى هجـْره تـُرى مـن دعـاكـا

أتـُرى مـَنْ أَفْتـَاكَ بـالصـدِّ عنـىِّ

ولغيرى بـالـودِّ مـَنْ أفتـاكـا

بـانكسـارى بِـذلَّتـى بخضـوعـى

بـافتقـارى بفـاقتـى بِغنـاكـا

لا تكلنـى إلى قـوى جَلـَدٍ خـا

نَ ، فـإنـى أصبحتُ مـن ضُعفـاكـا

كنـت تجفـو وكـان لى بعـضُ صبْرٍ

أَحْسَنَ اللهُ فى اصطبـارى عـزَاكـا

كـم صـدودًا عساكَ تـرحـمُ شكـوا

ى ، ولـو بـاستمـاع قـَولى عسـاكـا

شنّع المُرجفون عنك بهجرى

وأشاعوا أنّى سَلوتُ هواكا

ما بأحشائهم عشقْتُ فأسلو

عنك يومًا ، دع يهجروا ، حاشاكا

كيف أسلو ومقلتى كُلما لا

حَ بريقٌ تلفَّتَت لِلقاكا

إن تنَسمتُ تحت ضوءِ لثام

أوتنسمْتُ الريحَ مِنْ أنْباكا

طِبْتُ نفْسًا إذْ لاح صُبحُ ثنايا

كَ لعيْنى ، وفاح طيبُ شذاكا

كلّ من فى حِماكَ يهواكَ ، لكن

أنا وحدى بكلٍّ من فى حماكا

فيك معنىً حلاكَ فى عيْنِ عقلى

وبه ناظرى مُعنًّى حِلاكا

فُقْتَ أهل الجمالِ حُسْنًا وحُسْنى

فبهمْ فاقةٌ إلى معْناكا

يُحشر العاشقون تحت لوائي

وجميع الملاحِ تَحْتَ لواكا

ما ثنانى عنْكَ الضَّنى فبماذا

يا مليح الدَّلالِ عنّى ثناكا

لـــك قـــربٌ منّـــى ببعـــدك عنـــى

وحنـــو وجـــدتـــهُ فى جَفـــاكـــا

علـّم الشـوق مقلتـــى سهـر اللَّيْـ

ـــلِ ، فصـارتْ من غير نـومٍ تـراكـا

حبـــذَّا ليلـــــةٌ بها صـــِدْتُ أسرا

كَ ، وكـــان السُهـــادُ لى أشراكـــا

نـــاب بـــدر التمام طيـــْفَ مُحيـــًا

كَ لِطـــرفْى ، بيقظتـــى إذ حكـــاكـــا

فتراءيـــــــت فى ســـــــواكَ لعينٍ

بـــك قــرَّتْ ومـــا رأيـــت ســواكـــا

وكـــــذاك الخليـــــلُ قلّـــب قبلى

طـــرْفـــه حين راقـــبَ الأفـــلاكـــا

فـــالـــديـاجـــى لنـا بـــك الآن غـُرٌّ

حيـث أهـديـتَ لى هُدًى مـن ثنـاكـا

ومتـــى غبـْتَ ظـاهـرًا عـن عِيـانـى

أُلفـــِه نحـــو بـــاطنـــى ألفـــاكـــا

أهـــل بـــْدرٍ ركـــبٌ سريـــْتَ بليـــْلٍ

فيـــه بـل ســـار فى نهـارِ ضيـاكـــا

واقتباسُ الأنـــوار من ظـاهرى غيـْـ

ـــر عجيبٍ وبـــاطنـــى مـأواكـــا

يعْبَق المسْكُ حيثما ذُكــرَ اسْمـى

منــذ نــاديْتَنــى أقَبــلُّ فــاكــا

ويضـــوع الغبير فى كـــلِّ نــادٍ

وهـــو ذكــرٌ مُعبرٌ عـن شــذاكــا

قـــال لى حســنُ كـلِّ شــىءٍ تجلَّى

بــى تملى فقلـتُ قصــدى وراكــا

لى حبيـــبٌ أراكَ فيــه معنــىَّ

غُــرَّ غيرى وفيــه مَعْنــىً أراكــا

إن تـــولَّى على النفـــوس تـــولَّى

أو تجلَّى يستعبــدُ النُســَّـاكــا

فيـه عـوِّضـتُ عـن هـُداى ضـلالاً

ورشـادى غيـًّا وسترى انهتـاكــا

وحـَّـد القلـبُ حُبــَّه فــالتفـاتــى

لـــك شِرْكٌ ولا أرى الإشراكــــا

يـا أخـا العذْلِ فى مـن الحسْـن مثْلى

هــام وجـْدًا بـه عـدِمـْتُ أخــاكـا

لــو رأيـت الـــذى سبـانــى فيــه

مـــن جمالٍ ولـــن تـراهُ سبــاكــا

ومتـــى لاح لى اغتفــرْتُ سُهــادى

ولعينـــىَّ قلــتُ هـــذا بِـــذَاكا

مريضة الأجفان

لابن عربى

بأبى طفلةٌ لعوبٌ تَهادى
من بناتِ الخدور بين الغوانى
طلعت فى العِيان شمسا ، فلما
أفلت أشرقت بأفق جنانى

هو محيى الدين بن عربى ، الحاتمى الطائى الأندلسى . ولد بمرسية إحدى بلاد الأندلس سنة خمسمائة وستين هجرية ، وانتقل إلى إشبيلية فى الثامنة من عمره ، فقرأ بها العلوم على مشاهير زمانه ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد ، وجاور فى مكة ، وأقام فى بلاد الروم طلبًا للعلم والسياسة ، وتوفى بالشام عن ستة وسبعين عاما، ودفن فى مسجد يحمل اسمه فى سفح جبل قاسيون بعد حياة حافلة جلبت عليه الكثير من الأنصار والأعداء .

وقد ترك ابن عربى مؤلفات كثيرة أشهرها « الفتوحات المكية » الذى يعدُّ واحدًا من أمهات كتب التصوف الإسلامية ، وديوان شعره «ترجمان الأشواق » الذى يمتلئ بقصائد فى الغزل يرمز بها إلى المعانى الروحية والدلالات الصوفية .

يقول ابن عربى :

مـرضـى مـن مـريضـةِ الأجفـانِ
علـلانـى بـذكـْرِهـا ، علـلانـى
هفـت الـوُرْق بـالريـاض ونـاحـتْ
شجْوُ هـذا الحمامِ ممـا شجـانـى
بـأبـى طفلـةٌ لَعـوب تهادَى
مـن بنـات الخدورِ بينِ الغـوانـى
طلعـتْ فى العيـانِ شمسـًا ، فلما
أفلـتْ أشرقـتْ بـأفـقِ جَنـانـى
يـا طلـولاً بـِرامـةٍ دارسـاتٍ
كـم رأتْ مـن كـواعـبٍ وحسـانِ
بـأبـى ثـم بـى غـزالٌ ربيـبٌ
يـرتعـى بين أضلعـى فى أمـانِ
مـا عليـه مـن نـارهـا فهـى نـور
هكـذا النـورُ مُخمـدُ النيران
يـا خليلىَّ عـرجـا بعيـانـى
لأرى رسـْم دارهـا بعيـانـيِ
فـإذا مـا بلغتما الـدار حُطـا
وبها صـاحبـىَّ ، فَلتبكيـانـى

وقفـا بـي على الطلـول قليـلاً
نتباكـي ، بـل أَبـْكِ ممـا دهـانـي
الهوى راشقـي بغير سهـام
الهوى قـاتلي بغير سنـانِ
عـرّفـانـي إذا بكيـتُ لـديْها
تُسعـدانـي على البُكـا تُسعـدانـي
واذكـرا لي حـديـث هنـدٍ ولبنـي
وسليْمـى وزينـبٍ وعِنـانِ
ثـم زيـدا مـن حـاجـر وزرود
خبرًا عـن مـراتـع الغـزلان
وانـدبـانـي بشعـرِ قيـسٍ وليلى
وبمـيٍّ ، والمبتلَى غيـلانِ
طـال شـوقـي لطفلـةٍ ذات نثـرٍ
ونظـامٍ ومنـبرٍ وبَيـانِ
مـن بنـاتِ الملـوك مـنْ دار فـُرسٍ
مـن أجـلِّ البـلاد مـن أصْبهـانِ
هـي بنـتُ العـراق بنـتُ إمـامـي
وأنـا ضـدّها سليـلُ يمـانـي
هـل رأيتـم يـا سـادتـي أو سمعتـم
أن ضـدَّيـْن قـطُّ يجتمعـانِ

لــو تــرانــا بـــرامـــةٍ نتعـاطـــى

أكـــؤُســـًا للهـــوى بغير بَنـــانِ

والهوى بيننـــاَ يســـوقُ حـــديثـــًا

طيبـــا مطـــربـــا بغير لســـانِ

لـــرأيْتـــم مـــا يـذهـــبُ العقـــلُ فيـه

يمـــنٌ والعـــراقُ معتنقـــانِ

كـــذب الشـــاعـــر الـــذى قـــال قبلى

وبـــأحجـــارِ عقْلـه قـــد رمـــانـــى :

« أيها المنكـــح الثـــريـــاً سُهيـــْلاً

عَمـــْرَكَ الله كيـــف يلتقيـــان

هـــى شـــاميـةٌ إذا مـــا استهلـَّت

وسُهيـــلٌ إذا استهـــلَّ يمانـــى[1]



(١) هذان البيتان منسوبان للشاعر عمر بن أبى ربيعة .

ربّــة الســّـــتر

للإمام الصرصرى

سيرى فـأنـوار أقمار المحـــامـل إن
حـــار الأدلـــةُ فى البيـــدْاء تهديـكِ
فَتحتِ بالــرشدِ عن عينــىَّ بعد عمىً
وأسمــعَ السرَّ مــن قلبـــى منــاديـكِ

« هــو الإمام العــالم جمال الديـن أبو زكـريـا يحيى بـن يوســف الصرصرىّ العراقى ، كـان ضريرًا ، ولكنه كان تقيا ورعا وأديبـًا بارعًا وله ديوان شعرى كبير أكثره مدائح فى الرسول الكريم ، مات على أيدى التتار ـ عند سقوط بغداد ـ سنة ستمائة وست وخمسين هجرية » .

يقول الإمام الصرصرى :

يا ربةَ الستر لا انجابت غواديك
عن جوٍّ مغناكِ أو يخضر واديك
وأنت يا عذَباتِ البانِ ، لا برحتْ
تهيجُ أشواقنا ألحانُ شاديكِ
وماسَ من كلِّ غُصنٍ منك من طربٍ
عِطفٌ وتهْتِ دلالاً فى تهاديكِ
ويا مياه الحمى لازلْتِ طيبةً
يُروى بشربِ الزّلالِ العذب صاديكِ
ويا نسيم صبا نجدٍ لقد عرفَت
روحى بمسراكِ وَهْناً عرفَ مهديكِ
ويا ليالينا لله عيْشُ هوًى
مع البدور تقضّىً فى دآديكِ
ويا فوارط أيامى بخيْف منى
لو كان يُفدى زمانٌ كنتُ أَفديكِ
ويا رسائلَ وجدٍ لا أبوحُ بها
إلى الأحبةِ عندى من يؤدّيكِ
أُخفيك عن عُذَّلى صوناً وتكرمةً
بل المدامعُ والأنفاس تُبديكِ

ويـا ركاب الحجـازِ القُودَ ، لانقبـتْ
مـن السَّرى أبـدًا أخفــافُ أيـديـكِ
ولا عـدلْتِ عـن النهـجِ القويـمِ ، ولا
مـالـت إلى غير أحبـابـى هـواديـكِ
ونلـْتِ ما شئـتِ مـن وردٍ ومن كـلأٍ
ولا نبـا السمعُ عـن تغريـد حاديـكِ
كمْ ذا التَّمادى،ذرى التَّعليلِ وابتدرى
إلى الحمـى ، فَعنـائى فى تماديـكِ
سيرى فـأنـوار أقمار المحـامـل إن
حـار الأدلـَّةُ فى البيـداء تهديـكِ
ويـا قبـابَ حمى سَلْعٍ حـويـْت على
رقـىٍّ بما أسلفـت عنـدى أياديـكِ
فَتحْتِ بالـرشدِ عن عينىَّ بعـد عمىً
وأسمـعَ السر مـن قلبـى مُنـاديـكِ
حـقٌّ علىَّ أُوالى مـن بـه اعتلقـتْ
أسبـابـهُ وأُعـادى مـن يُعـاديـكِ
إنـى وإن تكُ أضحـت عنـك نازحـةً
دارى لأرعـى بظَهـْرِ الغيـب واديـك
لازال سُكـانـكِ القُطـَّانُ فى دعـةٍ
وفـاز رائحـكِ السـَّارى وغـاديـكِ

وأنت لا تجزعـي يا نفـسُ من بـدعٍ

مضلــةٍ وضيــاءُ اللهِ هــاديــكِ

أجــارَكِ اللهُ لــولا درعُ سُنتـــهِ

لكـان سهـمُ الهوى الفتّاك يـُرديـكِ

وارحمــــتا للعــاشقـــين

للسهروردى

« لا ذنـب للعشـاق إن غلـب الهوى
كتمانهم ، فنما الغـرامُ ، فبـاحـوا
سمحـوا بـأنفسهم ومـا بخلـوا بها
لما دروا أن السماح ربـــــــاحُ»

« هو شهاب الـدين عمر السهروردى ، ولد فى سهـرورد وقرأ كتب الدين والحكمة وأقـام فى مراغة وبغداد وحلب ، حيث كـان مقتله بأمر السلطان صلاح الدين بعد أن نسب البعض إليه فساد المعتقد ، ولتوهم صلاح الدين أن السهروردى يفتن ابنـه بالكفر والخروج على الدين ـ وكان مقتله بقلعة حلب سنة ستمائة وخمس وستين هـجـرية ـ مع أنه كان من كبار المتصـوفة فى زمانه ومن أفقه علماء عصره بـأمور الدين والفلسفة والمنطـق والحكمة ، ويسمى مذهبـه الذى عرف بـه «حكمة الإشراق » .

ويروون أنه قال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

قـل لأصحـاب رأونـي ميتـا
فبكـونـي إذ رأوني حـزنـا
لا تظنـونـي بـأنـي ميتٌ
ليـس ذا الميـت والله أنـا
أنـا عصفـورٌ وهـذا قفصـي
طـرت عنـه فتخلّى رهنـا
فـاخلعـوا الأنفس عـن أجسـادهـا
فترون الحقّ حقـاً بيّنـا
لا تـرعكـم سكـرة الموت فما
هـي إلا بـانتقـالٍ مـن هنـا

يقول السهروردى :

أبــــــدًا تحن إليكـــــم الأرواحُ
ووصـــالكـــم ريْحانُها والـــرَّاحُ
وقلـوبُ أهـلِ ودادكـم تشتـاقكـم
وإلى بهاء جمالكـــم تــرتـــاحُ [1]
وارحمتـــا للعـــاشقين تحمَّلـــوا
ثقـــل المحبـــة والهوى فضـّــاحُ
أهـل الهوى قسمان : قســم منهمــو
كتمـوا ، وقسـمٌ بـالمحبـة بـاحـوا
فـالبائحـون بِسرهم شربـوا الهوى
صِرْفـًا فهـزهموا الغـرام فبـاحـوا
والكـاتمون لسرهـــم شربـوا الهوى
ممـــزوجـــةً فَحمتْهمـــو الأقـــداحُ
بـالسر إن بـاحـوا تبـاحُ دمـاؤهـم
وكـــذا دمـــاء البـــائحين تُبـــاحُ
وإذا همو كتمـــوا تحدَّث عنهمـــو
عنـــد الـــوشـاة المدمـــعُ السَّفـــاحُ

---

(١) فى رواية أخرى للبيت : وإلى لذيذ لقائكم ترتاح .

وبدت شواهدُ للسَّقام عليهمو

فيها لمشكلِ أمرهم إيضاحُ

خُفض الجَناحُ لكم ، وليس عليكمو

للصبِّ فى خفْضِ الجناح جُناحُ

فإلى لقاكم نفسهُ مرتاحةٌ

وإلى رضاكم طرفهُ طماحُ

عودوا لنور الوصل من غَسقِ الدُّجى

فالهجر ليلٌ والوصال صَباحُ

صافاهمو فصفوا له ، فقلوبهم

فى نورها المشكاةُ والمصباحُ

وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم

راق الشراب وراقت الأقداحُ

يا صاح ليس على المحب ملامةٌ

إن لاح فى أفق الصباحِ صباحُ

لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى

كتمانهم ، فنما الغرامُ ، فباحوا

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها

لماَّ دروا أن السَّماحَ رباحُ

ودعاهمو داعى الحقائق دعوةً

فَغدوْا بها مستأنسين وراحوا

ركبوا على سفُن الوفـا ، ودموعهـم

بحـرٌ ، وشـدّة شـوقهـم مـلّاحُ

والله مـا طلبـوا الـوقـوف ببـابـهِ

حتـى دعـوا ، وأتـاهمو المفتـاحُ

لا يطـربـون لغير ذكـر حبيبهـم

أبـدًا ، فكـلُّ زمـانهم أفـراحُ

حضروا وقـد غـابت شـواهـدُ ذاتهم

فتهتكـوا لما رأوهُ وصـاحـوا

أفنـاهمو عنهـم وقـد كُشفـت لهم

حُجـب البَقـا فتـلاشـت الأرواح

فتشبهـوا إن لم تكـونـوا مثْلَهـم

إنَّ التشُّبـه بـالكـرامِ فـَلاحُ

ويضيف الصوفيـة إلى قصيدة السهروردى أبياتـًا أخرى كثيرة ، من بينها مقطوعةٌ نظمت على غرار القصيدة الأصلية ، وحملت طابعها فى التعبير وطريقتها فى بناء الصور الشعريـة والدوران حول قاموسها المختار من الكلمات والإشارات :

أيـامنـا بلقـائكـم أفـراحُ

وجميـع أيـام المِلاحِ مـلاحُ

قـل للمحـب إذا تهتـَّك فى الهوى

إن التهتـُّك فى الغـرام مُبـاحُ

واخلـــع عِـذَارك لا تُبـــالِ بعـــاذلٍ

واطـــربْ وغـنِّ فما عليــك جُنـــاح

أهـــل المحبـــة حين طـــاب شرابهم

بـاعـوا النفوس لِحبهـم وارتـاحـوا

شربوا كؤوس الحب فى حـان الصَّفا

فتمايلــــت سكـــــرا بها الأرواحُ

بـــالانكســـار تحمّلـــوا فى حبـّه

فبـــدا عليهـم مـــن رضـــاهُ سَماحُ

خلع الحبيـبُ عليهمو خلـعَ الرِّضـا

وأنـــالهم مـــن فضلــه الفتـــَّاحُ

مـلأ الحبيــب قلـوبهم مـــن نـوره

فشـــذاهمو مـــن عطـــره فـــواحُ

تحيى الحبيـب بذكـرهم وبنـورهم

وتـــزول عنـــد لقـــاهمو الأتـــراح

كــلُ القلـــوب لهم تحن تشـّـوقــًا

وتُحبّهـــم ، وبحبِّهـــم تــرتـــاحُ

فتشبهـــوا إن لم تكـونـــوا مثلهـــم

إن التشبــُّــه بـــالكـــرام فَـــلاحُ

إلهــى يا سمــيع

لأحمد البدوى

« إلهى ثـــوب جسْمــىَ دنَّستـــهُ
ذنـــوبٌ حِملُهـــا أبـــدًا ثقيـــلُ
إلهى جـــد بعفـــوك لى فـــإنـــى
على الأبـــواب منكسر ذليـــــلُ »

« هو أبو العباس أحمد البدوى القرشى ، كـان مولده بمدينة فاس بالمغـرب ، هاجر مـع والده وأهله إلى مكـة حيث تعلم القـرآن والعلوم الشرعية ، ثم حببت إليــه الخلوة والوحدة فاعتزل النــاس وظهرت عليه دلائل البركة والـولاية ، ثم هــاجر إلى العراق حيـث لقى من شيـوخها وعلمائهــا الترحيب ، ثـم جـاء إلى مصر فى عصر الظـاهر بيبرس الـذى استقبله أروع استقبال بعـد أن طبقت شهرته الآفاق لعلمــه وصلاحه وتقواه ونـزل فى مدينة طنطا حيـث كانت وفاتـه سنة ستمائة وخمس وسبعين هجرية زاهدًا متعففًا ورعًا ، وفقيهًا من فقهاء المذهب الشافعى وأعلامه » .

يقول أحمد البدوى :

إلهى أنـــت لـــلإحســـان أهـــلٌ
ومنــك الجود والفضــل الجزيـــلُ

إلهى بـــــات قلبـــــى فى هموم
وحـــالى لا يُسرُّ بـــه خليـــلُ

إلهى تـــب وجـُـد وارحــم عُبيــدًا
مـــن الأوزار مـــدمعــهُ يسيـــلُ

إلهى ثـــوب جسْمـــىَ دنستـــهُ
ذنـــوبٌ حملهـــا أبـــدًا ثقيـــلُ

إلهى جـُـد بعفـــوك لى فـــإنـــى
على الأبـــــواب منكسرٌ ذليــــلُ

إلهى حُفّنـــى بـــاللطـف يـــا مـــنْ
لـــه الغفـــرانُ والفيـــضُ الجزيـــلُ

إلهى خـــاننـــى جَلـَـدى وصبرى
وجـــاء الشيــبُ واقترب الـــرحيـــلُ

إلهى داونــــى بـــــدواء عفـــوٍ
بـــه يشفـــى فـــؤادى والغليـــلُ

إلهى ذاب قلبـــى مـــن ذنـــوبـــى
ومـــن فعـْـلِ القبيـــح أنـــا القتيـــلُ

إلهى رَدِّنــــى بــــرداءِ أنســـــى
وألبسْنِــى المهــابـــةَ يــا جليـــلُ
إلهى زحــزحِ الأســــواء عنـــى
وكـــنْ لى نــــاصرًا نِعــْـمَ الكفيــلُ
إلهى سيـدى ، سنـــدى وجــاهـــى
فمالى غيرِ عفــــوكَ لى مقيــــلُ
إلهى شتَّتــتْ جيــْش اصطبـــارى
همومٌ شرحُهـــا أبـــدًا يطـــولُ
إلهى صرتُ مـــن وجــدى أُنـــادى
أنــا العاصــى المســىء ، أنــا الذليــلُ
إلهى ضـــاع عمـــرى فى غـْــرور
وفى لهْوٍ وفى لعــــبٍ يطـــولُ
إلهى طـــالما أنعمـــْتَ منـــًّا
بجــودٍ منــك فضــْلاً يستطيــلُ
إلهى ظـــاهــرًا أدعـــوك ربـــِّى
كــذلــك بــاطنــًا أنــت الجليــلُ
إلهى عـــافنـــى مـــن كـــُلِّ داءٍ
بجـــاهِ مُحمــدٍ نعــْم الخليـــلُ
إلهى غـــافــر الـــزلَّات يــا مـــنْ
تعـــالى ، مـــالـــه أبـــدا مثيـــلُ

إلهى فــــاز مـــن نـــاداكَ ربـــِّى
أتــــاه الخيرُ حقـــًا والقبـــولُ
إلهى قلــْتَ ادعـــونـــى أَجِبْكـــُم
فهـــاك العبدُ يـدعـــو يا وكيــلُ
إلهى كيـــف حـــالى يـــوم حَشْر
إذا مــا ضــاق بـالعـــاصى مقيـلُ
إلهى لا إلــــه ســــواكَ ربـــّى
تعـــالى ، لاتُمثلــــهُ العقــــولُ
إلهى مسنــــى ضرٌّ فــــأضحـــي
بــه جسمـــى يُبلبلـــُه النحـــول
إلهى نَجنـــى مـــن كــلِّ كـــرب
ويسّر لى أمـــورى يـــًا كفيـــلُ
إلهى هـــذه الأوقـــاتُ تمضـــى
بـــأعمار لنـــا ، وبها تـــزولُ
إلهى والنـــى خيْرًا ، وأحســـنْ
ختــامـى عنـدما يـأتـى الـرسـولُ
إلهى يـــا سميـــعُ أجـــبْ دعـــائى
بطـــه مـــن تسيرُ لـــه الحمـــُولُ
فصـــلِّ عليـــه ربـــِّى كـــُل وقـــتٍ
صـــلاة لا تحولُ ولاَ تـــزولُ
وآلٍ والصّحـــاب ذوى المعـــالى
وفى طـــى الكـــلامِ هُمو الفحـــُولُ

سقـانـى محـبوبـى

لإبراهيم الدسوقى

« شـهدتُ وشـاهـدْنا وطابت نفـوسُنا
وقـــد لــذَّ لى ذُلِّى إليــه وخشيتــى
أحـــنُّ على ذلٍّ وأهـــوى على هـــدى
وأسرى على علـــمٍ لأنـــوار طلْعـــةِ »

« هو إبراهيم بن أبى المجد بن قـريش زين العابدين ، ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبـى طالب كرم الله وجهه . ولـد سنة ستمائة وثلاث هجريـة ، وتفقه على مـذهب الإمام الشـافعى ثـم اقتفى آثـار السادة الصوفيـة وصـار من أقطـابهم ، ومازالت طريقـه عامرة بـالصـالحين يقتفون آثاره فى مجاهـدة النفس وصدق التودد إلى الله وذكـره وحسن عبادته ، تـوفى سنة ستمائة وست وسبعين هـجرية عـن ثلاثة وأربعين عاما ومسجده بمدينة دسوق عامر بزواره حتى اليوم » .

يقول إبراهيم الدسوقى :

سقـانـىَ محبوبـى بكـأسِ المحبـةِ
فتهْتُ عـن العشاقِ سكْرًا بِخلْوتـى
ولاح لنـا نـــور الجلالـةِ لـــوأضـا
لصُـم الجبـالِ الـراسيـات لـدُكّتِ
وكنت أنـا السّاقـى لمن كان حـاضرًا
أطـــوفُ عليهـم كـرَّةً بعـد كــرةٍ
ونــــادمنــــى سرًا بِسرٍّ وحكمـــةٍ
وأن رســول الله شيْخـى وقـــدوتـى
وعـاهـدنـى عهـدًا حفظـتُ لعهـدِهِ
وعشـتُ وثيقـًا صـــادقـًا بمحبتـى
وحكّمنــى فى ســائر الأرض كُلهـــا
وفى الجنِّ والأشبـــاحِ والمرديـــّةِ
وفى أرض صـين الصـين والشرق كُلِّها
لأقصـى بـلاد الله صحّـَت ولايتـى
أنـا الحرفُ لا أُقـــرا لكـلِّ منـــاظـرِ
وكـلُّ الورى مــن أمــر ربِّى رعيَّتـى
وكـم عــالمٍ قـد جاءنـَا وهـو منكـرٌ
فصـار بفضـل الله من أهـلِ خرقتـى

ومـاقلـتُ هـذا القـول فخْـرًا وإنما
أتى الإذن كـى لا يجهلون طـريقتى
غنيـت عـن الـدنيـا بفيـضِ عطـائه
وأىُّ عطـايـاهـم يـدانـى عطيّتـى ؟
وصرتُ على بُعـد المسافـاتِ واصـلاً
لأدنـى دُنـوٍّ فى ارتفـاعـى لغـايتـى
فوجـه الحبيب الحقِّ مشرقُ وجهتـى
ونـورُ الحبيبِ الحقِّ سـاطع قبلتـى
وفى القلـب أشـواقٌ يترجـم فيضُـها
عن الألـقِ السامـى إلى قُدْسِ حضرةِ
شـهدت وشاهـدنا ، وطابت نفـوسنا
وقـد لـذَّ لى ذلِّ إليـه وخشيتـى
أحـنُّ على ذلٍّ ، وأهـوى على هـدى
وأسرى على علـم لأنـوارِ طلعـةِ
رضيـتُ بـه حتى دخلـت ريـاضـه
فـأنعـم بها من روضـة أىِّ روضـة
ومـا لـذة العشـاقِ إلا يقينهـُم
بشملٍ جميعٍ بعـد طـول تشتـتِ
وأغسلُ قلبـى من سـواك ، ولم أجد
لنفسـى إلا نـورذاتـك بغْيتـى
تعـاليتَ بـالعطْفِ الكـريـم ، رعايـةً
فبـاركْتَ زلاتـى وأمَّنْتَ روعتـى

فطـرة النفـس

لأبى العباس المرسى

« والنفسُ بين نـزولٍ فى عـوالمهـا
كـآدمٍ ولـه حـواءُ فى قـَرنِ
والـروحُ بين تـرقٍّ فى معـارجهـا
وهـى الموافـقُ للتعـرِيـف والمنـنِ »

« هو الإمـام العارف بالله شهاب الـدين أبو العباس أحمد بـن عمر الـخزرجى الأنصـارى المرسى البلنسى ، ولد فى مـرسية من مقـاطعة بلنسية بـالأندلـس سنة ستمائة وست عشرة هجـرية ، ونسـب إليها فسمى المرسـى ، وفد مع شيخـه أبى الحسن الشـاذلى إلى مصر سنة ستمائة واثنتين وأربعين هـجرية وأقاما بالاسكندرية وأخذ أبو العباس يلقـى الـدروس ويعلم مبـادئ السلـوك وتطبيـب النفوس فى جـامـع العطارين ، وذاعت شهـرته ـ بعد موت شيخه الشـاذلى ـ وتلقى العلم على يديه وصاحبه كثير من علماء عصره كـالبوصيرى وياقوت العرش والسكندرى وابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام والحافظ المنذرى ـ وتوفى سنة ستمائة وخمس وثمانين هجرية » .

يقول أبو العباس المرسى :

إن كنـت سـائلنـا عن خـالصِ المنـنِ
وعـن تـآلـف ذاتِ النفـسِ بـالبـدنِ
وعـن تشبثهـا بـالحظِّ مـذ ألفـت
أدرانَها فغَـدَتْ تشكـو مـن العَطـنِ
وعـن بـواعثهـا بـالطبـع مـائلـةً
تهوى بشهـوتها فى ظلمـة الشجـنِ
وعـن حقيقتهـا فى أصـل معـدِنها
لا ينثنـى وصفُهـا منهـا إلى وثـن
وعـن تنـزلها فى حكمهـا ولها
علـمٌ يفـرقهـا فى القُبـح والحسَنِ
فاسمـع هُديـتَ علومـًا عز سـالكُها
على البيـانِ ولا يغـررك ذو لَسـنِ
قصدًا إلى الحقِّ لا تخفـى شواهـدُها
قـامت حقـائقهـا بـالأصل والفنـنِ
يـا سائلى عـن علـومٍ ليـس يُدركهـا
ذو فكـرةٍ بفهـومٍ لا ولا فِطـنِ
لكـن بنـور علىٍّ جـامـعٍ خمدَت
لـه العقـولُ وكـلُّ الخلـقِ فى وَسَـنِ

خُـذْهـا إليـك بحـق لسـتَ جـاهلـهُ
والأمـــر مُطَلَـــعٌ والحقُّ قيـــدنـــى
على الحقيقـة خُـذْ علـم الأمـور ولا
تحجبـك صـورتُها فى عَالمِ الـوطـن
ففطـرةُ النفـسِ سرٌّ لا يُحيـطُ بـه
عقـل تقيـد بـالأوهـامِ والــدرنِ
لكنهـا بـــرزتْ بـالحكــم قـائمـــةً
حتـى تـألفَهـا السكـانُ بـالسَّكـنِ
وكـــىْ يقـال عبيـدٌ قـائمـــون بما
ألقى مـن الأمر قبـل الخَلْق والمحـن
والنفــس بين نـزولٍ فى عـــوالمهـــا
كـــآدم ولـــه حـــواءُ فى قـــرَنِ
والـــروح بين تـرقٍّ فى معـــارجهـــا
وهـى الموافـــقُ للتعـريـــفِ والمنـنِ
مـن الحجابِ دنـت أنـوارُها فَبـدتْ
نـــورًا تنـــزل بين الماء والـــدِّمـــنِ
مثـــالها فى العـــُلا مـــرآةُ معـــدِنها
ألطـافُهـــا خِفْيـة كـــالسِّر فى العلـنِ
زيتـونـةٌ زيتُهـا نـــورٌ لصـــاحبهـــا
قـامتْ حقـائقُهـا بـالأصلِ والقُنـنِ

ونـــار دعـــوتها مـــاءٌ لشـــاربِها

مُـدَّت هـدايُتهـــا فى الكَـونِ والكُبـُنِ

والكـــلُّ أنـت بمعنـــًى لاخفــاء بـــه

والنـــور يحجبـهُ كـــالَماءِ فى اللَّبـــنِ

والعبـــدُ محتجـبٌ فى عـــزِّ مـالكـــه

دقـت معـارفـُـه فى الدهـر والـزمـنِ

ظهرتَ لكل الكون

لابن عطاء الله السكندرى

« ظهرت لكلّ الكون ، فـالكونُ مظهرٌ
وفيه لـه أيضا كما جـاءت الصحفُ
فـــأىُّ فـــؤادٍ عـــن ودادكَ ينثنـــي
وأيـة عينٍ بعـد قُـربـكَ لـن تغفـو »

« هو تـاج الدين أبـو العباس أحمد بـن عطاء الله من أهـل العلم فى التفسير والحديث والنحـو والفقـه والأصول ، صحب أبـا العبـاس المرسى وأخذ عنه ثم استوطن القاهرة وكان له كرسى فى الأزهر يجلس عليه ليشرح علوم القوم وآثار السلـف ، توفى بالمدرسة المنصـورية فى القاهـرة سنة سبعمائة وتسـع هجريـة ، ومن أشهـر آثاره مجمـوعة الحكم التـى نظمها والتى تفيض بـالرمزيـات وتهيبها الشراح لأنها فى رأيهم تشتمل على الأسرار المصونـة والجواهر المكنونة ، بـالإضافة إلى آثاره الشعرية التى تدل على موهبة أصيلة وبيان محكم » .

يقول ابن عطاء الله السكندرى :

وكلىَ محتـــاجٌ ، وأنـــت لـــك الغنـــى
ومثلى من يُخْطــى ، ومثلك مــن يعفُو

وأنــت الــذى أبــدى الــوداد تكــرمًا
ومثلُك مــن يرعى ، ومثلى مـن يجفو

وما طـاب عيش لم تكن فيـه واصلاً
ولم يصْفُ ، لا والله ، أنــًى له يصـفـو

عــزمــتُ على أن أتـــرك الكــون كُلــه
وأقفو سبيلَ الحبِّ ، والمُجْتبــى يقفُو

شـهـود كمـو يجلـو الحجـاب لأنـه
إذا حقَّق التحقيق صــار هو الكشفُ

ومــا أحســنَ الأحبابَ فى كُلِّ حــالــة
فـــــلله مــا يُبــدوا ولله مــا يخفـــوا

وإن الأولى لم يشـهــدوك بمشـهـــدٍ
قلـوبُهم عــن نيـْلِ سر الهوى غلـفُ

وأنــت الــذى أظهرتَ ثــم ظهـرْت فى
جميــع المبــادىِ مثلما شـهـِدَ العــَرف

ظهرْت لكــلِّ الكون، فالكــون مُظهرٌ
وفيه لــه أيضًا كما جــاءتِ الصُّحفُ

فـــأىّ فـؤادٍ عـــن فـؤادك ينثنـــى
وأيــةُ عيْنٍ بعـــد قـربـك لـــن تغفـو

وأيــةَ نفْسٍ لم يُملهـــا هــواكمـــو
على حُبّكم طُرًّا ، نفــوسُ الورى وقفُ

ويقول ابــن عطاء الله السكندرى فى وصــف الطريــق وشرح أحوال سالكيه والنصح لمن يريد رشاد الهداية :

أيا صاحِ هذا الرّكـبُ قد سار مُسرعًا
ونحنُ قعــودٌ ، ما الــذى أنت صـــانعُ
أترْضـــى بأن تبقــى المُخلَّف بعــدهم
صريــع الأمــانــى ، والغــرام ينــازع
وهــذا لســان الكون ينطـق جهـرةً
بــأنَّ جميـــع الكــائنــاتِ قـــواطـعُ
وأنْ لا يرى وجــه السبيلِ ســوى امرى
رمى بــالسوى لم تختــدعْهُ المطــامعُ
ومــن أبصر الأشيـــاء والحقُّ قبْلهــَا
فغيـّب مصنوعــًا بمــن هــو صانــعُ
بـــوادهُ أنـــوارٍ لمن كـــان ذاهبـــًا
وتحقيـــق أسرارٍ لمن هــــو راجــــعُ
فقــم وانظـر الأكوانَ والنــورُ عمّهــا
ففجــرُ التّدانــى نحْوكَ اليــومَ طالــعُ
وكـــنْ عبْدَهُ ألـــقِ القيــاد لحكمـــه
وإيـــاك تـــدبيرًا فما هــو نـــافـــعُ

أتحكـــم تـــدبيرًا وغيرُك حـــاكـــمٌ

أأنـــت لأحكـــامِ الإلـــه تُنـــازعُ ؟

فمحـــــو إرادات وكـــلُّ مشيئـــةٍ

هو الغَرضُ الأقصى فهل أنت سامعُ

كـذلـــك ســار الأولـــون فـــأدركـوا

على إثـرهـم فَلْيَسر مـن هـو تـابـعُ

على نفْســهِ فلْيَبـْكِ من كـان طَـالبًا

ومـــا لُمســتْ ممـــن يُحبُّ لـوامـــعُ

على نفْســهِ فليْبـكِ من كـان بـاكيًا

أيـذهبُ وقـتٌ وهـو بـاللهو ضـائعٌ

سُكْرُ المحبّة

لابن أرقم النميرى الأندلسى

« فما بـــالهم سُكــر المحبــةِ أنكـــروا
ولا شربـــوا مــن خمرِ وجـــدانها صرفــا
يـــريـــدون إدراكَ المعـــانـــى حقيقـــةً
وهــل يجدُ التحْقيـق مــن لم يُجدْ وصفــا »

« هو أبـو محمـد عبـد الله بن عـبد العظـيم بـن أرقـم النميـرى الأندلسى من أهل وادى آش ، يكنى أبا عـامر ، يقول عنه لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة (الجزء الثالث) :

« كان أحد شيـوخ بلدى وطلبته ، مشاركًا فى فنـون من فقه وأدب وعربيـة وهى أغلب الفنون عليـه ، وكان مطرح السّمت ، مخشـوشن الـزىّ، قليل المبـالاة بنفسه ، مختصرًا فى كـافـة شئونـه ، وكان بيتـه معمـورًا بالعلماء أولى الأصـالـة والتعين ، وقـد تصدّر ببلـده للفُتيـا والتدريـس والاستماع ، وكانت وفـاته ببلـده سنة أربعين وسبعمائة هجرية » .

يقول ابن أرقم النميرى الأندلسى :

تعـــالـوا نُعـــاطيهـــا مُقـــدّســـةً صِرفـــا
فنـرشفُهـا فى بسْـط روض الهدى رشْفـا

أنـــار بها الأكـــوان نـــورٌ فـــأشرقـــت
ومـن قَبـلِ مـوجـوداتها وُجـــدت لُطْفـا

شربنـــا بـأكـــوابِ الصفـــاء صفـاءَهـــا
فللـــهِ مـــا أحْلى هـواهـــا ومـــا أصْفـــى

وغبْنـا عن الإحســاسِ من طيـبِ سُكْرِهـا
فـلاحَ لنـا فى الكـون مـــا لم يكـنْ يخْفـى

ولماَّ تجلَّى الحســْنُ فى حُجـْبِ قـُدْسـهِ
حُجبنـا فلـم نُبصر حِجـابـًا ولا سُجفـا

ورُحنـــا بـروض الأُنـــسِ نجنـــى ثماره
ونقطـف بـــالإخـلاص أزهـارهـــا قطْفـا

وبحنـــا بِسرِّ الحب فى مجلـــِس الهوى
ولم نخـــْشَ إذ بُحْنـــا بِسرِّ الهوى حتْفـــا

ونحـــن أنـــاس ليـس ينكـــرُ أمـــرُنـــا
عـــرفْنـا وعـــرفنـا المعـَارفُ والعـُرفـــا

فما بـــالهم سكـــرَ المحبـــةِ أنكـــروا
ولا شربـــوا مــن خمر وجـــدانها صرْفـــا

يـــريـــدون إدراكَ المعــانـــى حقيقــة
وهـل يجد التحقيـق مـــن لم يجدْ وصفـا
ومـــا الحَقُّ إلا ظـــاهــرٌ فى وجــودِه
وأسرارُه فى شرْح آيـــاتـــه تُلْفـــى
فلـو قصدوا المقصـود بالصـدق شاهـدوا
مصـــابيـــح أنـــوار تُنـــزِّهُ أن تُطْفـــا
ولـــو أخلصــوا فى ذاتـه وصلــوا بــه
إليـه ، ونـــالـوا عنـده أجْـرَ مـــن وفَّ
ولـو لمحــوا معنَى المحـاسِـنِ صيغـةً
لما وصفـــوا قـرْطـاً ، ولا ذكـروا شنْفـا
ألا أيها الســاقـــى ظمئنــا فَسِقِّنــا
بـألطافهـا يُشفى مِـن الجهـل ما يُشْفـَى
وعــاود ففـــى الأكـــواب منهـــا بقيـةٌ
بها العيـشُ يسْتحلَى ، بها الأنـسُ يُستـوْفَى
ومـــا طيبهـــا إلا بلطــفِ مــُديـرهــا
بحيـث مُنـادى الـرشـد نَبّـه مـن أغفـَى
أمـــولاىَ يـــا مـــولاىَ دعــوة مبعــدٍ
على الهلْـكِ مـن تسـويـف رحلتـه أشفـى
بعثـــت ودادى واشتيـــاقـــى وسيلـــةً
وإنـــىَّ فى بـاب الـــرجـاَ بــاسـطٌ كفــًّا
وإنّ ذنـــوبـــى كـــالجبـــالِ رجـــاحـــةً
وحبـــُّك يـــا مـــولاى ينسفهـــا نسفـــا

الملجـــأ الأحمـــى

لابن الجيّاب الأندلسى

« محبتــــه شرطُ القبـــولِ ، فمـــن خلــتْ
صحيفتـــُـه منهـــا ، فقـــد زاغَ واشتطــًّا
بـــه الحقُّ وضـّــاحٌ ، بـــه الإفـــك زاهـــقٌ
بـــه الفوزُ مـــرجـــوٌّ ، به الـذَّنـــبُ قد حُطــًّا »

« هو أبـو الحسن على بن الجياب الأنصـارى الأندلسى ، مـن أهل غرنـاطة جاء فى تـرجمته فى كتاب الإحاطـة فى أخبار غرنـاطة (الجزء الأول) :

« شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ ، كان على ما كان عليه من التفنن والإمامة فى البلاغة والأخذ بأطراف الطلب والاستيلاء على غاية الأدب ، صـاحب مجاهـدة وملازمـة عبـادة ، على طريقـة مُثلى فى الاستقامـة والنزاهـة وإيثار التقشف ، محب لأهـل الخير والصلاح .. وهـو شيخ طلبة الأندلس دراية وتحقيقًا ومشاركةً فى كثير العلوم ، توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية » .

يقول ابن الجيّاب الأندلسى :

أهــزْلاً وقــد جـدَّت بـك اللِّمـــَّةُ الشمطا
وأمْنـــاً ، وقــد ســادرتَها حيـــّةً رقْطـــا

أغـــرَّك طـــول العُمـــرِ فى غيرِ طـــائلٍ
وسرك أن الموت فى سيرِه أَبْطـــــــــــا

رويــــدًا فـــإن الموت أسرعُ وافـــدٍ
على عُمـــرك الفـــانـى ركــائبــهُ حطــًّا

فـــإن ذاكَ لا تسطيـعُ إدراكَ مـــا مضـــى
بحـــالٍ ، ولا قبضـًــا تُطيـــقُ ولا بَسْطـــا

تـــأهـــَّب فقـد وافـــاك سيبـك مُنـــذرًا
وهـــا هـو فى فـَوْديـكَ أحـــرفَـهُ خَطــًّا

فـــرافقـــتَ منـه كـــاتـــبَ السر واشيـــًا
لــــه العَلـــَم الأعلى ، يخطُّ بــــه خَطـــًّا

مُعمـــىّ كتـــابٍ فكـــَّه احـــذرْ ، فهـــذه
سفينـــةُ هـذا العُمـــرِ قـــاربـت الشطـــًّا

وقـد طـــالما خـــاضـت بـك اللُّجـــجَ التـــى
خبطــــْتَ بهَا فى كـــُلِّ مهلكـــةٍ خبْطـــا

ومـــــازلـــــت فى أمـــواجهـــا مُتقلّبـــًا
فـــآونـــــةً رفعـــًا ، وآونـــــةً حطـــا

فقـــد أوشكـــتْ تلقيـكَ فى قفـــْرِ حفـــرةٍ
يُشـــدُّ عليـــكَ الجانبـــانِ بها ضغْطـــا

ولسْتَ على علم بما أنت بعْدها
مُلاقٍ ، أرضواناً من الله أم سُخطا
وأعجبُ شيء منّك دعواكَ فى النهى
وهذا الهوى المُردى على العقل قد غطّى
قسطتَ عن الحقِّ المُبينِ جهالةً
وقد غالطتْك النفسُ ، فادَّعت القسْطا
وطاوعْتَ شيطاناً تجيبُ إذا دعا
وتقبلُ إن أغْوى وتأخذُ إن أعطى
تناءى عن الأخرى ، وقد حان حيْنها
تدانى من الدنيا ، وقد أزمعتْ شَحْطا
وتمنحها حُبًّا ، وفرْطَ صبابةٍ
وما منَحتْ إلا القتادَة والخمطا
فها أنت تهوى وصلَها وهى فاركٌ
وتأملُ قُربًا من حماها وقد شطًّا
صراطُ هدىً نكَّبتَ عنه عمايةً
ودارُ ردًى خالفْتَ فى حُبِّها الشرْطا
فما لك إلا السيّدُ الشافعُ الذى
له فضلُ جاه كُلما يرتضى نُعْطَى
دليلٌ إلى الرحمن ، فانهجْ سبيلَهُ
فمن حاد عن نهج السَّبِيل فقد أخطا

محبتـــهُ شرطُ القبــولِ فمـــن خَلَـــتْ
صحيفتـــهُ منهـــا فقـــد زاغَ واشتطــــًّا
ومـــا قُبلـــتْ منـــه لـــدى الله قـــُربـــةٌ
ولا زكـــت الأعمالُ بـــل حبطـــتْ حَبطـــا
بـــه الحقُّ وضـــاحٌ ، بـــه الإفـــك زاهـــقٌ
بـــه الفـــوز مـــرجـــوٌّ ، به الـــذنـــب قـــد حُطّـــا
هـــو الملجـــأُ الأحْمَى ، هـــو الموئلُ الـــذى
بـــه فى غـــدٍ يستشفـــعُ المذنـــبُ الخطـــًّا[1]
لقـــد مـــازجـــت روحـــى محبَّته التـــى
بقلبـــى خُطـــَّت قبـــل أن أعـــرفَ الخطّـــا

(١) أى الخطاء (الكثير ارتكاب الخطايا) .

ســـــلمى

لليافعى

« فيــاليلــةً فيهــا السعــادات والمنــى
لقــد صغُــرت فى جنْبهــا ليلــةُ القَــدْرِ
فلما شربنا الــراحَ فى ساحــة الرِّضــا
أتانــا أغرُّ السعــد بالخِلــعِ الخضرِ »

« هو عفيــف الديــن عبد الله اليــافعى ، ولــد فى اليمن ودرس الفقــه وعلــوم القــرآن ومــال إلى التصــوف ، فــارتحل إلى القــدس ودمشــق والحجــاز ومصر وأخــذ العلــم عــن أعــلام علماء عصره حتــى صــار مشهودًا لــه بالفضـــل والمنزلــة ، له مــؤلفات مشهــورة فى التصوف ، أهمُّهــا: « روض الريــاحين فى مناقــب الصــالحين » الذى يضــم سير خمسمائة مــن أولياء الصــوفية ، « ونشر المحــاسن الغــالية فى فضــل أصحاب المقــامات العاليــة » وفيه يشرح اليــافعى الأحوال والمقــامات بأسلوب أدبى جميل ، كما دوَّن فيه أكثر ما نظمه من قصائد فى الحب الإلهى والترانيم الصوفية .

توفى سنة سبعمائة وثمانى وستين هجرية .

يقول اليافعى :

سلا عن حمى سلمى،وعن أهله الغرِّ
عسى خبرٌ يلقاكما ، طيّب الذكرِ
يجىءُ به من نحوها عذبُ منطق
يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ
يُخبّر عن سلمى وعن ذلك الحمى
وقول لسان الحال فى نظمه الدرّى
رعى الله عهدًا مرَّ مع جيرة الحمى
هنا فى رياضٍ زاهراتٍ بهِ زُهْرِ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما
بدتْ فأضاء الكون من جانب الخِدرِ
أماطت حجابًا عن بهاء جمالها
فهمنا سكارى فى المهامة والقفرِ
نرومُ التسلِّى عن هواها ببُعْدنا
وكلُّ جمالٍ فى الوجود بها يغرى
خليلَّ ما سلمى ونجدٌ وما الحمى
وما راحُها ، ما كأسُها ، ما الهوى العُذرى
شربنا حميًّا الكأس فى قُدس حضرة
وأكرم بها فى حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْمِ نورِ جمالِ من
سقانا ، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

سكــرنـــا بها مــن شمهـــا قبــلَ شرْبها

نشـــاوى بـريـــّاهـــا إلى آخــِر الـدهــــرِ

أو السّكــر ذا مــن رؤية الكـأسِ ، أو أنــتْ

بــه رؤيــة الســاقـــى إلينــا ذوى السُّكــرِ

تجلَّى بـــأوصـــافِ الجمالِ فشـــاهــدت

عيــونٌ قلــوبَ مــا بـــه حـار ذو الفِكــْرِ

فيـــاليلـــةً فيهـــا السعـّادات والمَنـــى

لقـــد صغــُرت فى جنبهـــا ليلـــةُ القــدْرِ

فلما شربنـا الــراحَ فى سـاحـةِ الــرِّضــا

أتـــانـا أغــرُّ السَّعــْدِ بـالخلـعِ الخُضْرِ

رســـول عنــايــاتٍ بـــرســْم ولايــةٍ

وتصريفنـــا فى الملــْكِ فى الْبَرِّ والبحــْرِ

وضــاءت لنـــا أنــوارُ غيــْب وشـــوهــدت

أمـــــورٌ وأعلمنــــــا بها أنها تجرى

وحلّـــت بـوادى طـــور قلــب معـــارف

زهــت فيــه كـــم حسنــاء فى داخـل الخدرِ

وكــمْ حكــم تُجلى مـــلاح ، كـــأنها

عــرائسُ أبكـــارٌ على منطـــق الـــدرِّ

وكـــم يــدفــع الله البـــلايـــا بســادةٍ

مـن الخلـْق فى كشـفِ الشـدائد والضُرِّ

فمــنْ لم بــذا يــؤمــنْ ، فقـولــوا لـه إذا

تَجرَّا على الغــُرِّ المشـــايـــخ بــالنُكــْرِ

تجلّى فضـــــُولا فى فضـــائل ســــادة
لهم فى سما مجدِ المفـــاخــر كـــم قَصْرِ
مقــامـــاتُ أحبـاب تـــرى الشـهـب دونَها
بنـــوْهًـــا بيـــاقـــوت المواهـــبِ والـــدرِّ
تضـــىء الــدّيــاجــى مــن بهاء جمالِها
بما يهتـدى مـَنْ للعـلا نحــوهَـا يسرى
ومــا تلــك مـن أشبـاهِ عُشـٍّـك ، فــادرُجــى
إلى جــوفِ عــشٍّ فى الغيـابــاتِ أو جُـحْـرِ

المنبهجة

لمصطفى البكرى

« مولاى أتَيْتُك منكسرا
وبغيرك شوقى لم يهجِ
هل غيرُ جنابِكَ يقصد ، لا
وجمالك ذى الحُسنِ البَهِجِ »

« ولد فى دمشق سنة ألف وتسع وتسعين هجرية ، حيث تعلم العلوم الدينية ثم انتسب إلى الطريقة الخلوتية وأخذ عن مشايخها وأقطابها ، ونذر نفسه للزهد والتقوى والتزوه للآخرة ، ثم هاجر إلى مصر ونشر فيها الطريقة الخلوتية ـ التى ما يزال لها أشياع ومريدون حتى اليوم ـ حيث توفى سنة ألف ومائة واثنتين وستين هجرية ، بعد أن ترك آثارًا شعرية وأورادا وابتهالات صوفية كثيرة من بينها هذه القصيدة التى سميت بالمنبهجة ويقرؤها جميع مريديه يوميا قبل صلاة الفجر » .

يقول مصطفى البكرى :

قـــم نحــــو حماهُ وابتهـــج
وعلى ذاك المَحْيـــــا فعـــُجِ

ودع الأكـــوان وقـــمْ غسقـــًا
واصـــدق فى الشــوقِ وفى اللَّهـــج

والـــزم بـــاب الأستـــاذ تفـــُزْ
وتكـــون بـــذلـــك خـــلَّ نجـــى

واخـــرج عـــن كـــلِّ هـــوى أبـــدًا
ودع التلفيـــــق مـــــع الهرَجِ

إيـــاك أُخـــىَّ تـــرافـــقُ مـــن
لم ينْهـــكَ عـــنْ طُـــرق العـــوج

اقنـــع وازهـــدْ واتـــركـــهُ كـــذا
كَ ببـــابِ ســـواهُ لا تلـــج

وادخـــل للحـــان خليلى ومـــِلْ
نحـــو الخمَّار أبـــى السُّرُجِ

واشرب واطـــرب لا تخْشَ ســُوًى
إيـــاك تملْ عـــن ذى النَّهـــَجِ

كـــم أنـــت كـــذا ، لم تصْـــحُ ، أفـــقْ
وإلى الأبـــوابِ فقـــمْ ولـــجِ

مـــــــولاى أتيتــــــك منكسرًا

وبغيرك شـــــوقـــــى لم يهج

وأتيـــتُ إليـــك خليـًّا مــــن

صـومـى وصـلاتـى مـعْ حججـى

وكـــــذا علمـــــى وكــــذا عملى

وكـــذاك دليلى مـــــعْ حُججـــى

لا أملـــك شيئـًا غير الـــدَّمـــْ

ـــعِ مخافـةَ أن يغشـــى وهجـــى

هـــل غيرُ جنـــابِـك يُقصـــدُ ، لا

وجمالـــك ذى الحســـنِ البهـــجِ

مــــن يقصـــد غيرك فهـــو إذا

بظـــلامِ البعـــد تـــراهُ فجـــِى

مـن أنـــت تُضـلُّ فـذاك مـــن الــ

ــــهلاّكِ ومــــن تهدى فَنجـــى

ودمـــوعُ العين تُســـابقنـــى

مـــن خـــوفـك تجرى كـــاللّجـــِ

يـــا عـــاذلَ قلبـــى ويـــْكَ فـَـدعْ

عـــذْلى واقْصِر عـــن ذا الحرج

كـــم تعـــذلنـــى لم تعـــذرنـــى

دعنـــى فى البســـطِ وفى الفـــَرجِ

أذنـــى لحبيبــى صـــاغيـــةٌ
صُمــَّت عنـد الــواشـى السَّمــجِ
يــا صـــاحـبَ حـــانِ الخَمــْرِ أدرْ
صرفـــًا واتـــرك للممتـــزجِ
وأدرْ كــــأس الأسرارِ ودعــــــ
ـنِ أصيرُ بـــه مـــن ذى الهمـــج
مـــولاى بسر الجمـــع كـــذا
ك وجمعِ الجمــِع وكـُلِّ شجـــىِ
بـــالـــذات بسرِّ السرِّ ، بمــــن
إفضــالــك ربِّـــى منــك رُجـــى
بحقيقتـــك العظْمـــى ربِّـــى
وبنـــورِ النـــور المنْبَلــــجِ
بعماءٍ كنـــــت بــــه أزلاً
بمحمــد مــن جـــا بـــالبَلــَجِ
وبِسَر القـــرُب كـــذاك الحـ
ــــبِّ ، وأهـــل الجذْبِ المنُعــرجِ
وبما أوجــــدْتَ مــــن الأكـــوا
نِ بما فيهـــنَّ مــــن الأرجِ
وبــــأهـــل الحى وبهجتهـــم
وببحـــرِ القـــدرةِ والمَرج

وبطيـــبِ الــوصـــلِ ولــذتـــه
ببســـاط الأنـــسِ المُنْتَســَـجِ
وبقلـــــب فى بلـــواكَ غـــَدا
وحيـــاتـــكَ ليـــسَ بمنـــزعـــجِ
بتجلّى الليـــــــل وعـــــالمه
وظـــلام الكـــون كما السَّبــَجِ
بمنــــازل أفـــلاكٍ وكـــــذا
بمطـــــالعهـــــا ثـــم البُرُجِ
بـــالآل ، بصحـــب ، مـــن بهمـــو
كـــلٌّ الخيرات إلينـــــا تجيِ
يسِّر وأجـــْر كَسْرى ، بـــرضـًـا
ليكـــون بـــوصلـــك مبتهجـــى
واخلـــعْ خِلـــعَ الـــرِّضـوان على
صـــبٍّ فى حُبـِّك حِـــبٌّ هـــجِ
وامنـــح قلبـــى نفحـــاتـــك يـــا
مـــولاىَ وعجـِّلْ بـــالفـــرَج
واحسرةَ قلبـــــــى إن لم تَمْحُ
خطـــايـــا الـذّنـــبِ مـــن الـــدَّرجِ
واغفـــرْ يـــاربِّ لنـــاظمهـــا
ولـــه رقِّـــى أعلى الـــدَّرجِ

واسمــــعْ للســـامِـع مــا نُشـــدت

قــــم نحــــو حماهُ وابتهـــجِ

أو مــــــا جـــاء سَحـــرًا يحدو

الشـــدّةُ أودتْ بـــــالمهـــجِ

وصــــــــــــــلاةُ الله على الهادى

وســـــلام يُهدى فى الحِجـــجِ

لمحمــــــدنـــــا ولأحمدنـــــا

مــــــا فـــاح أقـــاحٌ فى المُرُجِ

مـــــــــا مـــــال مُحب يهواهُ

أو ســـار الــــركــبُ على السُّرُجِ

أو مــــــا داعِ يــــدعــــو المولى

يـــرجــو للنصر مــــع الفــــرجِ

مـــالـى ســـواك

لأحمدالحلوانى

« أستغفـــرُ الله ممـــا قـــد قلتـــهُ وهـــو زورُ
ومـــن تنـــاسٍ بِنـــاسٍ ، عمـــن هـــو المذكـــورُ »

« هو الشيخ العلامـة أبو عبد الرحيم أحمد بن إسماعيـل الحلوانى الخليجى الشافعى ، ولد سنة ألـف ومائتين وتسع وأربعين هجرية فى بلدة رأس الخليج مـن أعمال محافظة الغربية، وحفظ القـرآن ثم أتقن علوم الدين واللغة ، ثم ارتحل إلى طنطا لتحصيل المزيد من العلم حتى انتهى به الأمـر إلى الأزهر الشريف حيث تتلمذ على صفـوة الأعلام من علمائه كالقَصبى والباجـورى والخضرى والشبراوى . توفى سنة ألف وثلاثمائة وثمانـى هجريـة بعد أن تـرك وراءه عدة مصنفـات دينية والكثير من الأشعار والأذكار الصوفية »[1].

---

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى تأليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى.

يقول أحمد الحلوانى :

أستغفر الله ربّى ... فالله ربٌّ غفورُ
مما جناهُ جنَانى ... أو اللسانُ العَثُور
أو الجوارحُ منّى ... فإنها قد تثورُ
أو ظاهرٌ ليس يَخفى ... أو باطنٌ مستورُ
أستغفرُ الله مما ... قد قلْتُه وهو زورُ
ومن تَناسٍ بناسٍ ... عمَّن هو المذكورُ
ومن خلافِ أمور ... أنا بها مأمورُ
أستغفرُ الله مماً ... جَرى به المقدورُ
من كلِّ أمرٍ معيب ... قد كنتُ فيه أمورُ
لم يُرض ربّى وقلبىً ... بكسْبه مسرورُ
إن سرتُ يومًا إليه ... أطير حين أسيرُ
وعند أولِ جزءٍ ... منهُ يجىء الأخيرُ
وإن توخيتُ خيْرًا ... صرفًا فكم أستخيرُ
وإن تهممتُ يومًا ... إليه جاءَ الفُتورُ
وللتقدمِ أنوى ... فيعرِضُ التأخيرُ
هبْنى تقدمتُ ، ماذا ... يُجدى وقلبى نفورُ
وهبْه غيْرَ نفورٍ ... هل فيه ثمَّ حضورُ
عدمتهُ من فؤادٍ ... عند الصلاةِ يطيرُ
أنوى فيذهبُ لبّى ... وفى السلامِ يحورُ
أظلُّ أحسِبُ فيها ... وما تحتويه الدُّهورُ

كأنني بحسابي مُوَكَّلٌ أو أجيرٌ
فلو تراني فيها لقلتَ : ذا مبهورٌ
ففي العبادة طرْفي ولو بصيرًا ضريرُ
وفي الذنوبِ فؤادي على عَماهُ بصيرُ
يا ويْلنا مِن ذنوب فُجورُها مفجورُ
ومِن خُطايَ اللواتي إلى الخطى تستطيرُ
وآه من كلِّ إثم عليه يُطوى الضميرُ
ومن مقاصد سوءٍ جرى به التعبيرُ
شيءٌ ومنْ لستُ أدري؟ فذاك شيءٌ كثيرُ
قبائحٌ كنتُ فيها أَسْرى وطَوْرًا أسيرُ
ماتت وعاشت، فقلبي من أجلها مفطورُ
سُررتُ منها زمانًا وغمُّها مذخورُ
نسيتها ودعاها كتابيَ المسطورُ
ماذا أقول لربِّي إذا بدا التصويرُ
يارَبِّ أنت رحيمٌ وبالسَّماحِ جديرُ
يارَبِّ أنت عفوٌّ وأنت ربٌّ قديرُ
يارَبِّ إنني حقيرٌ جدًّا وأنت الكبيرُ
وشأنُ من جَلَّ يغضي إذا أساءَ الحقيرُ
وأين تُربٌ خسيسٌ من ربِّه يا مُجيرُ
وما أريدُ امتجاجًا عليكَ بل أستجيرُ
أجِرْ عبيدَكَ يا منْ سواه ليس يُجيرُ

مــالى ســواكَ أَغثنــى ... وهــل ســواكَ نصيرُ

ولى إليــك شفيــعٌ ... بـــدرُ السماءِ المنيرُ

غــوْثُ الأنام المرجّــى ... إذا السماء تمورُ

بــه توسّلــتُ فــاجبر ... كَسْرى ، فإنى كسيرُ

واسكُب عليه التحايا ... ما فــاض منه النــورُ

تعشقت نور الله

للشيخ على عقل

وهـــل غير ذات الله للنفـس مطلـــب
حرامٌ سوى الرحمن يدخلُ فى نفسى
وما اتَّخذت روحـــى سوى الله غـايةً
فتــم الهدى للروح والقلــب والحسِّ

« هـو الشيــخ على عقـل أحـد علماء العصر فى التصــوف والعلـوم الشرعية ، ولـد سنة ألــف وثمانمائة وأربع وتسعين ميــلادية ، وكـف بصره بعد مولده ، فوهبه والــده للقرآن والدين منذ صغره ، ودرس فى الأزهر الشريف ، ثم تقلبت به مجالس الذكر والإنشاد حتى صار علمًا يتعشقه المريدون ، توفى سنــة ألف وتسعمائة وثمانى وأربعين بعد أن ترك ديوانا شعريا يضم ترانيمه الصوفية ومدائحه النبوية هو ديوان « الإلهام » (١) .

---

(١) السموّ الروحى فى الأدب الصوفى تاليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

يقول الشيخ علي عقل :

قتلتُ هوى نفسي ، فعشتُ بلا نفْسِ
وجافيتُ أنسي ، فانحدرتُ إلى الأنْسِ

ولم أُبدِ أمري للعبادِ ، فطالما
كتمتُ الذي ألقي عن الجِنِّ والإنْسِ

وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبَّتي
وعاينتُ آياتِ اليقين بلا لبْسِ

وعشتُ زماني لست أحفل بالورى
وكيف ، وقلبي هام في مشهدِ القُدْسِ

وعلَّمتُ غيري ما أفادَ من الهُدى
فلم يبقْ ذو فهم لديَّ على طمْسِ

إذا وُسّد الناسُ القبورَ ، فإنني
جعلتُ التقى والذكر بين الورى رمْسي

ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيًا
ومن يخشَ ذات الله لم يرَ من بأسِ

وهل غيرُ ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ
حرامٌ سوى الرحمنِ يدخلُ في نفسي

وتوجّتُ بالقرآنِ نفسي عقيدةً
أصونُ به نفسي عن الزَّيْغ والدسِّ

وما اتخذت روحي سوى الله غايةً
فَتمّ الهدى للروح والقلبِ والحسِّ

وإن شرب النـــاس الطـــِّلا وتصببـــوا
فسُنـــَّةُ خلـــق الله فى شُربها كـــأســـى
وإن رفــع المثـــرون عُجبــًا رءُوسهـــم
رفعـتُ بـذكـر الله فـــوق الـورى رأْســى
وإن جعلـوا الشمــس اهتـداءً ليــومهـم
جعلـــتُ رضـــا ربـــِّى وآيتـــه شمســـى
وإن غـــرســـوا زرْعــًا لنْيــلِ حصـــادهِ
فتقْـوى إلـه العرش بين الـورى غـَرســى
تعشَّقـــتُ نـــور الله وهـــو بصيرتـــى
وقــد وضــح البرهــانُ مــن آيــة الكـرســى
ومــذ شــاهــدت روحى جــلالــكَ وارتقـتْ
تجرَّدتُ عـــن معْنـــاى فى عـــالمِ الحسِّ
أحبــّك يـــا ربــى محبـــّةَ مــُوقـــنٍ
ومـــن قـــوةِ الإيمانِ أُصبـــح أو أُمســـى
فـؤادىَ قـد أبعـدتُ عـــن مشهـد الـورى
فطُهــّر فى نجـــواكَ مــن ظلمـةِ الـــرِّجْسِ
أطـــوف على الأبـــواب قلبـــىَ مـــُوجــَعٌ
وليـس ســوى رحماكَ للقلــب مــن نِطـْسِ
وأعـــدمنـــى فى الحبِّ علمـــى بقـــدْرِه
فليـس غـرامـى فيـــه يـدرك عـن قيـْسِ
ولم أعشـــق الـــدنيـــا فتلـــك مجازة
تهىءُ لـــلأخـــرى وفى فـوتها عـــُرســـى

لقــاؤُك يــا رحمنُ عيــدى وعـُدتــى
ونـُورك غيثـى وهــو لى فى الـورى أُنســى
وبحــْرُك منــه قـد لقيــتُ جــواهــرى
بشــاطئــه سُفنــى على لُجِّهِ غَطســى
وطيــبُ الــورى ورْسٌ ومســك وعنبرٌ
وطيبىَ مـن مَحْياكَ أَسمـى مـن الـورسِ
ولســتُ مــن الـدنيـا ، أميـلُ إلى العـُلا
فـإنَّ عـُلا الـدنيـا لأصحـابــه يُنســى
أُمتــع أعضـــائى بـــذكـــرِكَ دائِمًا
وهــل غيرُ ذكـْـر الله يسكــنُ فى نفســى
وكـُلُّ رجـــائى أن أحبــك صـــادقـًا
إذ الصـدقُ فى الـوجـدِان مـرتبـة القـُدْسِ
ومـــا فضلـــه وقـــْفٌ على أىِّ عـــالم
وحقـِّـك مــا حـُدَّ العطــاءُ على جنــس
إذا رضـــى الـــرحمن عـن قلــب عَبـْدِهِ
جـرت مـركَبُ الأقـدار معـة على اليبْـس
تخلَّ ولا تحفـــلْ بجـــنٍّ ولا إنـــسِ
وعـشْ فى هـوى الرحمنِ تسعـدُ بـالأنْـسِ
وأقبــل على مـــولاك بـالقلــب مخُلصـًا
وأسلــمْ وسلـّم واتَّجه طــالـب القـُدْسِ
وخـُذ لــك بـــالإيمان أصــدقَ وجهــة
وطهـر بها نفسـًا عـن الغـى والـرجـس

تجرد تجدْ مـــــولاكَ أكبرَ نـــــاصر

وفـوّض لـــه مـا كـان فى الغـّـد والأمْـسِ

حيـــاةُ الـــورى حُلـــوٌ وُمـــرٌّ وإنما

حـلا المرءُ بـالتـوحيـد مـن رقـة الحسِّ

ومـــن لا يـــرى إلا الإلـــه مـــراده

حرامٌ عليـه الخوضُ فى العرشِ والكـرسـى

ومـــن يتعشـــق نـــوُره وجـــلاَلـــهُ

فليـس لـه التشبيـبُ بـالبـدْرِ والشـمـسِ

وإنـــك لـــو عظَّمـْـتَ دينـــكَ عـــالمًا

وعـاملـت بـالحسْنـى وأدَّبـتَ للنَّفـسِ

وكنـــت على الأحـــداثِ بـــالله راضيـــًا

ســواءٌ عليـك الموتُ أو ســاعـــةُ العـُرْسِ

سعـدْتَ مـــن الـدنيـا بـربـِّك محُسنـًا

ونلـت مـــن الأخـرى عطـاء بـــلا بخْـسِ

يقـولـون لى مـن أنـــت ؟ قلـتُ : مـُوحـّدٌ

إلى ربـــه يسعـــى ولم يـــرَ مـــن بـــأْسِ

إذا قيـــل لى اطلـبْ قلـــت ربـِّىَ مطلبـــى

وإن قيـل لى اشربْ قلـتُ أنـواره كـأسـى

وكـــلُّ عهـــودٍ قـــد تنكـَّس أصلهـــا

ولكـــنَّ عهـــد الله بـــاق بـــلا طَمـْسِ

سلـونـى عـن العشـاق قـد ذقـتُ حُبَّهـم

وإنـــى لهم رأسٌ إذا كـــان مـــن رأْسِ

ومــا هم ســوى أعضــاء جسْمــى وبزتــى
أصــافحهــم مــا شئــتُ لكــن بـــلا لمسِ
ومـــا حيلتـــى إلا انكســـارىَ فى الحمـــى
وإن انكســار القلب يكشــف عــن قدســى
وحلـــوُ الهوى عنـــدى لقـــاء أحبَّتـــى
ومـُر الهوى عنـدى وفى هجرهـم تعْســى
وأعـــــرفُ رحمانـــــى وأُدركُ عفـــوهُ
وأنهض معتـــزا ومـــا أنـــاَ بـــالمنْســـى
وإنَّ حبـــال الـوجـدِ تـــربـط مهجتـــى
وقلبـــى بحـــبٍّ الله يعبـــق كـــالـــورس
وإن كنــت فى سعــدٍ فـــذلــك فضلـــهُ
وإن لم أكــنْ مــن سادة العـُرْبِ والفــُرْسِ
فقـلْ للـــذى يـُزجـــى الشراع دعِ الكـرى
تجد سُفـن الإحســاَنِ تجرى على اليبـسِ
وسرْ مـــوقنـــاً أن الإجـــابـــة للهـــوى
إذا مــا دعـــا الـداعـى ولا تــكُ فى حـدْسِ
فكـــلُّ الــــذى تــرآه والكـــون خلقـــهُ
ومــا نفـعِ التفــريــقُ بـالنـوْعِ والجِنـسِ
حسبـتُ الهوى سهـلاً فخُضـــتُ عبُابَـــه
فطـورًا بـه أطفــو ، وطـــورًا بــه غَطْســى
إلى أن أَتتْنـــى مـــنْ لـــدُنـــهُ عنـــايــةٌ
وصلـــتُ بها بــَرَّ الســـلامـــةِ والأنـــسِ

موسيقى من الله

للشاعر محمود حسن إسماعيل

« الدَّرْبُ ضوّأ للسُّراة حقيقةً ، وحصادَ نُورْ
وهدى الدُّجى ، وتمزَّقت حجُبُ الرياءِ ، على الحضُورْ »

« محمود حسن إسماعيل أحد الأصوات الشعرية الكبرى فى عصرنا الحديث ، ولد فى قرية النخيلة بمحافظة أسيوط فى الثانى من يوليو سنة ألف وتسعمائة وتسع وكانت وفاته ـ فى الكويت ـ فى الرابع والعشرين من أبريل سنة ألف وتسعمائة وسبع وسبعين ، عن رحلة شعرية طويلة وحافلة ، أصدر خلالها عددًا كبيرًا من الدواوين الشعرية تأكدت بها منزلته كشاعرٍ أصيل له لغته الشعرية المتفردة وأسلوبه فى التصوير والتعبير ، وتجاربه الوجدانية والكونية المميزة ، من بينها أغانى الكوخ ـ هكذا أغنى ـ أين المفر ـ نار وأصفاد ـ قاب قوسين ـ لابد ـ صلاة ورفض ـ نهر الحقيقة ـ هدير البرزخ ـ صوت من الله » وهذه القصيدة من ديوانه موسيقى من السر الذى صدر فى الذكرى الأولى لرحيله .

يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

وهناك عند الفجْرِ فى إشراقةٍ كلظى الهجِيرْ
وعلى خُطى قمرّية الإيماضِ ،
يسْفحُ نُورُها كذب الصخور
روضٌ رحيبٌ ، أجهشت فيه الزهور
وتكلمت بعطوره لغةُ الطيور
وتأوّهت ريحٌ مجُنحةُ المسيرِ ، على مخاصرِه تدور
وترنّمت ورقاء صاليةُ الشّعور
معشوقتى وعشيقةُ النغمِ المُصفدِ فى الوُكُورْ
وذبيحتى ، وأنا الذبيحُ ، وجازرُ الرؤيا أسيرْ
مُتلفّعٌ تحت العروقِ ، بمهدِه الثّملِ الوثيرْ
فى كفّه نهرُ الحياةِ ، لهيبهُ قلقٌ مرير
وعلى شواطئه هتافٌ لجَّ فى ندم غرير
وضراعة بلهاء تصرخُ وهى هالِعةُ النفيرْ
وخطيئة تلدُ الحياةَ ، ومهدُها يلدُ الدثُور
وصدًى يغرّدُ نائحًا ، وبدمعه يلْغو السُّرور
وغمامةٌ عرجاء دوّخها المسيرْ
آناً تسيرُ وآنةً تبكى المصيرْ
والأفق مصلوب كسِيرْ
شحَنَتْهُ أوهامُ العصورْ
ومسابحُ النساكِ وهى على مزالقها تدور
الكفُّ مؤمنةٌ، وظلُّ الكفِّ مشنَقةُ الضميرْ

وتمائمُ المتبتلين كأنها حرجُ الغواية فى الصدور
مسكينة الأصداء تَلْعقُ فى المداهنِ والبخورِ
وتَئنّ فى حباتها الدعواتُ ،
جائعة الهدى لزجاج كوبٍ أو حصيرِ
متلمّظاتٍ للورودِ ،
على هوادجَ أخجلتْ خشبَ النُّذورْ
يتلقَّفُ الأزوادَ ، من عبقٍ تنَاسمَ بالشرورْ
والنور ، من حَلَك تناغمَ فى الجذُور
والطُهْر ، من شطحاتِ أوهام وزور
وتعانقُ القُدْسَ المنيعَ ، كأنما سكن السّتور
بفهيق راغية محبّرة على زبد الثغور
ونقيق غاوية مبعثرة على خَبلٍ جسير
متُخالج اللمحات .. أعمى دُسَّ فى ألَق ضرير
طحنتهُ سُنبلهُ السيادِة بالقشورْ
والرزق ، والعوز المخدر بالسكينة والحبورْ
ولواه جلاّبُ المطايا للغرور
ومضفر الأصلاب أعتابا مطهمة الظهور
أقواسُها تئدُ السهامَ ، وتُنشبُ العشْبَ الحقير
وتحيلُ هشَّ الوارفين ، مشاتلاً لرُبى القصور
وعلى خضوع الهائمين بكفِّها تعلى الجسورْ
وتدورُ تطحنُ فى غيابتها ، فتطحنُ أو تدور !
سبحان وهّاب الظلام لمن يريدُ بصيص نور

سحبوا من الأكفانِ قُدرتَه ، ولجُّوا فى الثبور
وتأوَّدوا خببًا ، وتهتهةً ، وليّا للصدور
فى حومةٍ لا للسماء ، ولا التراب
لدفِّها نَسَبٌ يُشير
زعموا لقاء الله وحدهمو ، وجلَّ
فنوُرُه غمر الدهور
فى الحب ، فى الأمل المحلّق ، فى الأجنّة ، فى البذور
فى الريح ، فى النسيم المرنح ، فى العشايا والبكور
فى الطيف ، تلمحهُ ظلالُ ظلالِه فوق الغدير
فى السَّفح ، فى ضجر المغاور ، فى البرازخِ ، فى البحور
فى كُلِّ راقِىء دمعةٍ من جفن مظلومٍ فقير
فى كلِّ كاسرِ حلْقةٍ ، من قيد مهجورٍ أسيرْ
فى كُلِّ رافضَ لُقمةٍ ، للّيلِ ، جالبها أسيرْ
فى كُلِّ واهب روحهِ غوثَ التراب المستجيرْ
فى كُلِّ ذاتٍ حركتْ عدمَ الفراغَ إلى الصَّريرْ
فى خُطوةِ القَدمِ الذى هتك البراقعَ عن دجى
القمر المنيرْ
وحدَا السَّدَيم ، وشق بين يديه أسرار الأثيرْ
ومشى على الأجيالِ ، يسحقُ جهلَ عالمها الضَّرير
ويزيحُ ستر الغفلِ عن إعجاز خالقهِ القدير
الدَّرْبُ ضوّأَ للسُّراة
حقيقةً ، وحصادَ نُورْ

وهوى الدُّجى ،
وتمزّقت حجبُ الرياء على الحضورْ
فاللهُ يصحبُ كُلَّ من صحِبَ النهارَ ...
ومال عن غبشِ الستورْ

على بـــاب الـرجـــاء

شعر : طاهر أبو فاشا

« فى طليعة الأصوات الشعرية المعاصرة ، ذاعت له شهرة من خلال كتابته الطويلة للبرنامج الإذاعى الشهير « ألف ليلة وليلة » والأوبريت الإذاعية « رابعة العدوية » التى سكب فيها عصارة شعره فى الحب الإلهى الذى ضمَّنه ديوانه « راهب الليل » .

وقد أصدر الشاعر ، قبل وفاته ، مصنفه « ألف يوم ويوم » بعد أن أصدر دراسته الأدبية « الذين أدركتهم حرفة الأدب » عن الشعراء والأدباء الذين شقوا بحظوظهم فى الحياة ، بالإضافة إلى ديوانيه الأخيرين : « الليالى » و « دموع لا تجف » .

يقول طاهر أبو فاشا :

غـريـبٌ على بـاب الـرجـاء طـريـحُ
ينـاديـك موصـول الجوى وينـوحُ

يهون عذابُ الجسـم والروح سـالم
فكيــف وروح المستهـامِ جــروحُ

وليس الـذى يشكو الصبابة عـاشقًا
ومـا كـلُّ بـاكٍ فى الغـرام قــريـحُ

يقـولون لى غنـىِّ [1] وبالقلب لـوعةٌ
أُغنـــّى بها فى خَلْـــوَتى وأَنــــوحُ

ولى فى طـريق الشـوقِ والليلُ هـائمٌ
معــالم تخفـــى تــارةً وتلـــوحُ

ولى فى مقـام الـوجـد حـالٌ ولـوعـةٌ
ودمــــع أُدارِى فى الهوى ويبـــوحُ

وأنت وجـودى فى شهودى وغيبتـى
وسرُّك نــور النـــورِ أو هـــو رُوحُ

ومـا دخلـَتْ إلاَ إليـك مــواجـدى
وداعــى الهوى بـالــوالهين يصيـحُ

بسرِّ الهوى يغـــدو وفيـــه يــروحُ
غـريـبٌ على بـاب الـرجـاء طـريـحُ

* * *

(١) الحديث على لسان رابعة العدوية فى الأوبريت الإذاعية التى تحمل إسمها .

حانـةُ الأقدار عـربدت فيهـا لياليهـا ودار النور

والهوى صاحي

هذه الأزهـار كيف تسقيها وساقيهـا بها مخمور

كيف يا صاح

سـألـتُ عـن الحبِّ أهـل الهوى

سُقـاة الـدمـوعِ نـدامَـى الجوى

فقـالـوا حنـانـكِ مـن شجْـوهِ

ومـن جـدّه بـك أو لهوه

ومـن كـدَر الليـل أو صفـوهِ

سلى الطيرَ إن شئـتِ عـن شـدْوِهِ

ففـي شـدْوِهِ همسـاتُ الهوى

وبـرْح الحنينِ وشَرْحُ الجوى

* * *

ورحـتُ إلى الطير ، اشكـو الجوى

وأسـألـهُ سِرَّ ذاكَ الجوى

فقـالَ حنـانـكِ مـن جمْره

ومـن صحْـوِ ساقيـه أو سُكْرِهِ

ومـن نهيـهِ فيـك أو أمـْرِه

سلى الليـل إن شئـتِ عـن سرِّه

ففـي الليـل يبعـثُ أهـلُ الهوى

* * *

ولما طـوانـى الـدُّجـى والجوى

لقيـتُ الهوى وعـرفـتُ الهوى

ففـى حـانـة اللَّيـلْ خمَّارُهُ

وتحت خيـامِ الـدُّجـى نـارهُ

وفى كـلِّ شـيءٍ يلـوحُ الهوى

ولكـنْ لمن ذاقَ طَعـمَ الهوى

* * *

يا صُحبةَ الرَّاح : أهلُ الراح هل حانُوا

وهـل تغنـتْ على ألحانها الحانُ

صبا النَّدامى وما فى الحانِ ألحانُ

فى كأس عُمرى بقايا ، من يُشاربنى

ومـن يُطارحنى والعيشُ ريْحانُ

ثُمالةٌ مـن دمـوعِ الشجْوِ ألوانُ

إبـريقُها راح يبكى وهـو فـرحـانُ

ثُمالـةٌ ، آهِ لـو فـاضـتْ ، وآه إذا

غاضـتْ ، وواهًا لها ، والقلبُ لهفانُ

عهدى بها وكُؤوسُ الصَّفـوُ مُترعـةٌ

بهنَّ طـاف علىَ السَّكـرى سُكيْرانُ

لا يشربُ الـراحَ ، إلا أنـه ثمـلٌ

نشـوانُ والكـأسُ فىَ كَفَّيْـهِ نشـوانُ

تـُرى تعـود الليـالى والهوى معنـا

يا غُربــةَ الكأسِ ، ما للكأسِ نــُدْمانُ

* * *

عـرفتُ الهوى ، مـذْ عرفـتُ هواكـا

وأغلقــتُ قلبــيَ عمــَّنْ ســواكــا

وقمـتُ أنــاجيـكَ ، يـا مـَنْ تـرى

خفـايــا القلـوبِ ولسْنــا نـراكـا

(أُحبــــك حُبَّيْن : حــــُبَّ الهوى

وحُـبـًّا لأنــك أهـــلٌ لـــذاكــا)[1]

(فـــأمـَّا الـــذى هــو حـُبُّ الهوى

فشغلى بـذكـرك عمـَّنْ سـواكـا)

(وأمـَّا الــذى أنـــت أهـــلٌ لــه

فَكشفـُكَ لى الحُجْـبَ حتــى أراكـا)

(فـــلا الحمــــدُ فى ذا ولا ذاكَ لى

ولكـــن لـك الحمــدُ فى ذا وذاكــا)

وأشتـاقُ شـوقيْن : شـــوقَ النـَّوى

وشـوقًا لقـرْب الخُطـى من حماكـا

فـأمـــا الـذى هـو شـــوقُ النـَّوى

فَمسرى الـدمـــوع لطـولِ نـَواكـا

وأمـــا اشتيـاقــى بقـربِ الحمـــى

فنـــارُ حيـاةٍ خَبـتْ فى ضيـــاكـا

---

(١) الأبيات الأربعة التى بين الأقواس من شعر رابعة العدوية .

ولستُ على الشَّجْوِ أشكو الهوى
رضيتُ بما شئْتَ لى فى هواكا

* * *

لغيرك ما مددْتُ يدا — وغيرُكَ لا يفيضُ ندى
وليس يضيقُ بابُك بى — فكيف تردُّ منْ قصدا
وركْنُك لم يزَلْ صمدا — فكيف تذودُ من ورَدا
ولُطْفُكَ يا خفىَّ اللّطْفِ — إن عادى الزمانِ عدَا

* * *

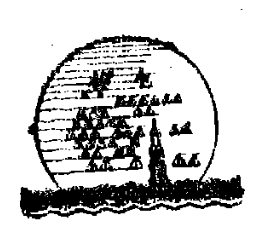
على قلبى وَضعْتُ يدا — ونحْوكَ قد مددْتُ يدا
سَرى ليلى بغير هُدًى — ولا أدرى لأىٍّ مدى
يُطاردنى الأسى أبدا — ويرعانى الجوى أبدا
وينشرنى الهوى رُوحًا — ويطوينى الهوى جسَدا
وأطوى البيدَ طاويةً — كأنِّى فى الفضاءِ صدى
نهارى والهجيرُ لظىً — وليلى والظلامُ ردَى
فواكبدا إذا أضحى — وإن أُمسى فواكبدا
وليس سواكَ لى سَندٌ — فَقَدْتُ الأهْلَ والسَّندا

* * *

على عيْنى بكتْ عينى — على روحى جنَتْ رُوحى
هواكَ وبُعْدُ ما بينى — وبينك ،سرٌّ تبريحى
صحا من شجوه كأسى — وقد نامَ الخليّونا

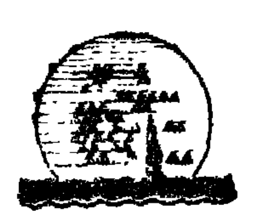
فكيف أفــرُّ من نفســى إذا هـــام المحبــونـــا
حيائى منــك يبُعدنــى وداعى الشوق يُدنينى
ووجهُ الصفحِ يُخجلنى ويقتلنـــى ويُحيينـــى
خلـوت إليـك يـاربـى وقلــت عساك تقبلنـــى

مددت يدى
إليك ومنك يا ربَّاه
ومن طول النَّوى أوّاه

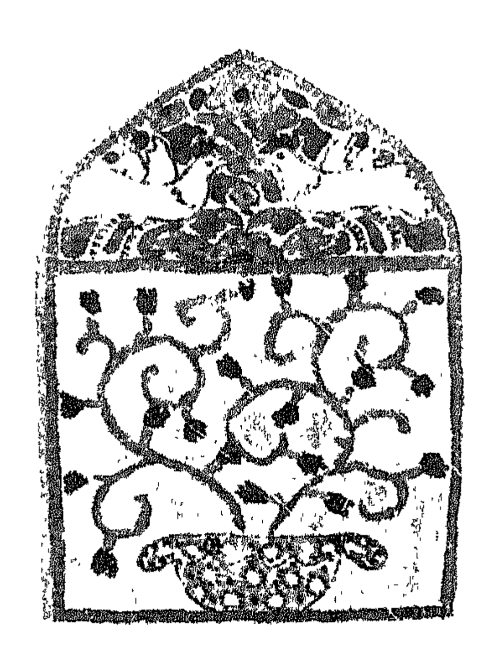


الفهرس

رقم الإيداع : ٢٣٩٨ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ٦ـ ٠٠٥١ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧



مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص. ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي

إذا كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلة قد توقفت عند تجربة الحب فى الشعر العربى ، وحملت عنوان «أحلى عشرين قصيدة حب » فى هذا الشعر، فإن هذه الحلقة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمى من ساحات هذا الحب هى ساحة الحب الإلهى ، حيث فاضت وجدانات العشاق الكبار من الشعراء بأنغام وترانيم وألحان تطهروا بها ، وحلقوا من خلالها ، دُنوًّا واستشرافًا من الأفق الأعلى والأسمى ، حيث ينابيع الروحانية، والفيض الغامر ، وحيث تمتلئ النفوس بأقباس من النورانية وتفيض العيون بدموع الندم والخشية والتوبة ، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقامات العشق وأحواله ، وينسكب هذا كله فى النهاية شعرًا يفيض بالصدق ويعمر باليقين والمحبة والإيمان .

والأمل معقود أن تلقى هذه المختارات من شعر الحب الإلهى ما لقيته سابقتها لدى القراء من ذيوع وانتشار ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسونا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته، فتتعدد مجالات الاختيار، من خلال أذواق عدة ، من شأنه أن يؤدى فى النهاية إلى تكوّن الذوق الصحيح المدرب الذى يجيد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح فى تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجدّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات فى تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعرى ــ قديمه وحديثه ــ وفتحت بابًا ولو يسيرًا لتذوق عصرى ، ترفده حساسية جديدة ، ووعى جديد، فإنها تكون قد شارفت الغاية، وأشارت إلى الطريق .

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤/٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ، ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣